obeikandl.com

أمازلتَ تُصدِّق؟

الكتاب : أمازلت تصدق ؟

المؤلف : زينب عبد الهادي

تصميم الغلاف :

تدقيق لغوي : أحمد أسامة

رقم الإيداع : 2016/14325

الترقيم الدولي : 978-977- 778-065-0

الطبعة الأولى : 2016

20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة

ت-02-35860372 011-27772007

Noon_publishing@yahoo.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

obeikandi.com

أمازلتَ تُصدِّق؟

رواية لـ

زينب عبد الهادي

obeikandl.com

obeikandl.com

إهداء

لأمي العظيمة دومًا

لشقيقاي المختلفان

لمعلمتاي الجميلتان (تهاني) و (سمية)

للغائبين عني.. والمختبئون في مكانٍ ما على هذه الأرض

لـ (ياسر) و (زهرة).. بطلا روايتي

وأخيرًا.. لكل من ساعدني ووقف بجانبي لأستمر!

أهديكم جميعًا.. روايتي الأولى

obeikandl.com

obeikandl.com

إسعَد.. فما كل المصائبِ مُحزِنَة

وارقص على إيقاع نبضِ صغيرةٍ

وبكاءِ عاجزةٍ

وصرخةِ مِئذَنَة

لا تنزعج مما تراه

فإنني أدري

بأن لديكَ نفسًا مؤمِنَة!

محمد فكري

obeikandl.com

obeikandl.com

(1)

1 مارس 2012

ارتعدت (زَهرة) ذعرًا بعد أن لامس كفها جبين صغيرها المتصبب عرقًا وسخونة، هرعت خارج الغرفة متجهة إلى غرفة نومها، وبقلقٍ بالغ ارتمت على الفراش الذي تكوم عليه زوجها غارقًا في نومٍ عميق، هزته بعنفٍ شديد قائلة:

- (ياسر).. قُم بسرعة (مالك) حرارته مرتفعة جدًا

استيقظ (ياسر) فَزِعًا، بعد أن اتسعت عيناه الحمراوتان من أثر هزتها العنيفة لجسده، حَدَّقَ في وجه (زَهرة) ببلاهة، ظل صامتًا تائهًا لثانيتين، حتى استوعب عقله وجه زوجته المُحَدِّق في ملامحه، عيناها الغائرتان من أثر السهر، والنُعَاسُ مُعَلَّقٌ على رموشها يحاول التسلل.. فتمنعه بصرامة فناجين القهوة التي ارتشفتها (زَهرة) في محاولة للصمود في وجه رغبة جسدها في النوم والراحة!

- ما بِك؟؟ هل ستظل تتعرف على ملامحي حتى تدهور حالة ابنك؟.. قلتُ لك حرارته مرتفعة جدًا!!

- وكيفَ عرفتِ؟

- قستها بالترمومتر ثلاث مرات خلال خمس ساعات.. في المرة الأولى كانت سبعة وثلاثين وعلامتين فقمت بعمل كمادات باردة لجبينه وقستها مرة أخرى فوجدتها ثمانٍ وثلاثون! فزِدتُ الكمادات على جسده كُله وأعطيته خافضًا للحرارة، ثم قستها للمرة الثالثة منذ قليل فوجدتها تسعٌ وثلاثون!!

(ياسر) الولد يجب أن يذهب إلى الطواريء، لن أنتظر حتى تسوء حالته أكثر من ذلك.. هيا قُم لتأخذنا إلى هناك!

- حسنًا.. اهدئي وبدلي له ملابسه وبدلي ملابسكِ أيضًا ريثما أغسل وجهي وأستعد.

نهضت (زَهرة) وزوجها مسرعين كلٌ يرتدي ملابسه ويجهز نفسه لاصطحاب الصغير إلى أقرب مستشفى للطواريء..

***

تُحرك الممرضة المناوبة في الاستقبال قلمها برتابة على ملفات متناثرة الأوراق.. تدون بعض الملاحظات وتنهي بعض التقارير المطلوب تسليمها فورًا لبعض الحالات المُقيدة في المستشفى..

يدخل (ياسر) حاملًا طفله ذو الثلاثة أعوام على كتفه، وتلحقه زوجته القلقة على صحة صغيرها، يصلان إلى ممرضة الاستقبال.. فترفع الأخيرة نظرها بملل إلى الشخصين الماثلين أمامها، تتمتم بكلمات لا يفهمها (ياسر) ولا تصل إلى أذن (زَهرة) لكنهما يفهمان من الأفأفات التي تلتها بأنها ليلة صعبة!

- نَعم يا أستاذ..أي خدمة؟

- أجل.. من فضلك أحتاج طبيبًا باطنيًا يكشف على ابني.. فحرارته مرتفعة جدًا

- حسنًا.. اجلسا ريثما أراجع جدول المناوبة.. لأرى هل يوجد من يستطيع مساعدتك.

حرك (ياسر) رأسه موافقًا.. واتجه هو و (زَهرة) إلى مقعدين متجاورين.. في انتظار الفرج.. مرت دقيقتان حتى سمعا الممرضة تنادي:

- يا أستاذ.. من فضلك توجه إلى الغرفة في نهاية هذا الممر ستجد دكتور (محمد) في انتظارك.

نهض الوالدان، وأخذا بالسير في ذلك الممر بخطوات واسعة حتى وصلا إلى الغرفة المقصودة.. طرقت (زَهرة) الباب طرقات خفيفة، ثم بادرت بفتح الباب دون انتظار إذن الدخول، دخلت إلى الغرفة ومن خلفها (ياسر) حاملًا (مالك) على كتفه، وقد غَرِقَ كتفه عرقًا يتصببه جسد الصغير.

- أهلًا وسهلًا.. تفضلا بالجلوس..

جلست (زَهرة) ومن بعدها (ياسر) في كرسيين متقابلين، أنزل (ياسر) ابنه من على كتفه وأجلسه على فخذه.

- إذن ما المشكلة؟؟

بادرت (زَهرة) بالحديث قائلة بقلقٍ بالغ:

- ابننا (مالك) يعاني من ارتفاع شديد في درجة الحرارة منذ ثلاثة أيام!

- ممم.. متى لاحظتِ ذلك بالضبط؟

- بدأ الموضوع من الجمعة الماضية.. حين خرجت مع صديقتي وابنها مصطحبة (مالك) معي.. فهذا يوم نزهته الوحيد.. ذهبنا إلى حديقة الأطفال في الحي الذي نقطن فيه انا وهي.. كان الصغيران يلعبان بمرح كبير.. وكنتُ مشغولة بالحديث معها.. ثم فجأة وجدنا ابنها يركض نحونا برعب ويصرخ بأعلى صوته:

- ماما... (مالك) سقط على الأرض ولا يجيب عليّ!

نهضتُ مذعورة وتبعتني ركضًا إلى حيث الأطفال متجمعون حول (مالك).. أبعدتهم دفعًا حتى وصلت إليه.. كان ممددًا على الأرض، مغلق العينين، وجهُهُ مائلٌ إلى إحمرارٍ غريب، وجسده يتصبب عرقًا بطريقةٍ غريبة!

حملته حملًا وعُدنا إلى المنزل، لم أدرِ ماذا أفعل..فقد توقف عقلي منذ أن رأيته ممددًا على الأرض بلا حِرَاك، استجمعت قواي وقررت أن أقوم أولًا بقياس درجة حرارته، وعندما فعلت وجدتها سبعٌ وثلاثون لكنَّ جبينه ملتهب.. ووجهه مازال أحمرًا، فقمت بعمل كمادات باردة لجبينه، بعد نصف ساعة، وجدته قد استفاق وقد عاد وجهه للونه الطبيعي، وجدته يتمتم بصوتٍ خفيض:

- ماما.. أريد ماءًا!

نهضت مسرعةً وأحضرت له ما طلب.. وَمَرَّ اليومُ على خير.. حتى تكرر نفس الموقف منذ ثلاثة أيام ولكن هذه المرة كان في الحضانة.. واستمرت حرارته في الارتفاع خلال ثلاثة أيام حتى وصلت تسع وثلاثون درجة، كما أن جسده يتصبب عرقًا من جميع جوانبه، بالإضافة إلى أنه لم يستفق من وقتها إلا لشرب كميات كبيرة من الماء ثم أجده يغرق في نومٍ عميق مرة أخرى!

لم أدرِ ماذا أفعل، حتى شعرت أنه يجب أن يراه الطبيب، فطلبت من (ياسر) إحضاره إلى هنا بعد أن نفذت قدرتي على الاحتمال.

انتهت (زَهرة) من سرد حالة ابنها وما تعرض له خلال الأيام السابقة، حَرك الطبيب رأسه إلى الجسد الصغير المرتمي في حضن والده ثم أردف موجهًا كلامه إلى (ياسر):

- حسنًا.. أرجو أن تضعه على سرير الكشف.. لنرى ما به.

أومأ (ياسر) برأسه ونهض من كرسيه متوجهًا نحو السرير القابع في ركن الغرفة، اقترب الطبيب من (مالك) وأخذ يفحصه بعنايةٍ شديدة.. مرت الدقائق العشر ثقيلة على أنفاس الوالدين، حتى انتهى الطبيب من عمله وتوجه عائدًا للجلوس على مكتبه مرةً أخرى، بينما رفع (ياسر) ابنه على كتفه وعاد للجلوس.

بعد ثانيتين من الصمت، بدأ الطبيب في الحديث بنبرة استفهام:

- سيدة (زَهرة).. ألم تلاحظي خلال الأيام الماضية بُقَعًا صغيرة تكونت على ذراعي ابنك؟

بدهشةٍ وقلقٍ عارِمَينِ تسائلت (زَهرة):

- بقع؟؟ بقع من أي نوع؟!!

- بقعٌ صغيرة تشبه الآثار التي يتركها الجلد بعد أن ينزف مثلًا!

باستغرابٍ نَفت (زَهرة) وجود ما يتسائل الطبيب عنه، فبادر الطبيب بالحديث:

- حسنًا.. أولًا يجب أن تكونا هادئين، لأن ما سأقوله لكم الآن مهمٌ جدًا ويجب استيعابه جيدًا، أنا أشك في أن ابنكما مصاب بعدوى الحمى الشوكية، وهي عدوى بكتيرية لابد أنها انتقلت إليه من شخص يجالسه بكثرة، تصيب هذه العدوى الأغشية المحيطة بالمخ، كما أنها خطيرة جدًا حيث أن 10% من المصابين بها من الأطفال دون الأربع سنوات يمكن أن تؤدي بهم إلى الوفاة – لا قدر الله -، وأعراضها كثيرة جدًا منها ارتفاع في درجات الحرارة والطفح الجلدي والإغماء كما حدث مع (مالك).

ولكي نبادر بعلاج حالته يجب أولًا أن أتأكد من تشخيص الحالة قبل بدء العلاج، لذلك أنصحكم بأن تتركاه معنا لعدة أيام ريثما ننتهي من إجراء التحاليل والفحوصات اللازمة، بعدها نبدأ بالعلاج.

obeikandl.com

أنهى دكتور(محمد) حديثه بشيءٍ من اللامبالاة، فهو يقوم بذلك كل يوم، يخبر المرضى بأمراضهم، يخبر الأحياء الموشكين على الموت أنهم سيموتون بعد عدة أشهر أو إن كان الحظ حليفهم فسيعيشون لسنة أو اثنتين.. كل هذا معتاد، وأصبح مملًا جدًا.

أما (زَهرة) فقد احتاجت لربع ساعة تقريبًا حتى تستطيع استيعاب ما قاله الطبيب للتو، في حين أن (ياسر) ظل محدقًا في دكتور (محمد) بعينين تحجرت بعض الدموع على أطرافهما، بينما احتضنت يده اليسرى طفله الصغير بقوة، والذي عرف للتو أنه مصاب بمرض خطير، وأنه ربما يموت!

***

obeikandl.com

(2)

20 مارس 2001

لم يكن (ياسر) شابًا مختلفًا، كان مستقيمًا فقط! في حياته مباديء لا يسمح للظروف بأن تجبره يومًا على تجاوزها، كان صارمًا في الصواب، ليس صعبًا في معاملة الآخرين، وإنما صعبٌ في معاملة ضميره، لا يحب أن يوضع تحت إجبار أو ضغط، شابٌ ثلاثيني، مثقف، يعمل في إحدى الشركات المشهورة للأوراق المالية، يعيش في مستوى معيشي جيد وحيدًا بعد وفاة والديه، لديه أصدقاء كثيرون، يعرفهم من خلال علاقاته الواسعة المرتبطة بمحيط عمله، في الحقيقة ليسوا جميعًا أصدقاءه، فالغالب في معظمهم المصلحة.. قبل كل شيء، ولكنه استطاع الفوز بشخصٍ يشبهه إلى حدٍ ما.. رغم جنونه اللامحدود، وغرابة تصرفاته كثيرًا، إلا أنهُ يريحه في التعامل معه، في الحديث إليه، يجده حين يشعر بالحاجه إلى استنشاق بعض الجنون، بعيدًا عن رتابة الحياة ومللها!

كان ذلك (إبراهيم) شابٌ يهوى العيشَ بشكل مفرط، يهوى المغامرات، والزج بنفسه وبـ (ياسر) في مخاطر لا حدود لها، يرافقه في معظم رحلاته خارج المدينة، يكبر(ياسر) بأربع سنوات، يعمل طبيبَ تحاليل في إحدى المعامل، لا يأبه للمشاكل، ولا يضع لها اعتبارًا، يحاول التأقلم مع أسوأ الظروف.. يحاول خلق حياة تناسب رغباته المجنونة.

***

1 مارس 2012

خرجت (زَهرة) من المستشفى، تجرُ قدماها الثقيلتان، تحاول إبصار الشوارع حولها.. رغم الدموع التي أغرقت وجنتيها حتى انسابت على ثيابها راسمةً دوائر تبخرت بسرعة بفعل الهواء، لم تدرك يومًا أنها ستضطر إلى ترك ابنها الوحيد ذو الثلاث سنوات في مكان لا يعرفه، مكان لم يعتده، رغم اعتيادها هي على زيارة أشباهه، سيخلو البيت من ضحكاته المرتفعة، من قهقهاته حين تدغدغ بطنه، حين تقبل يديه الصغيرتين على غفلةٍ منه، حين تعبث بشعره الأسود الكثيف وهي تحاول إيقاظه كي يذهب إلى الحضانه، سيخلو البيت من (مالك)، لن تحتضنه إلى صدرها الليلة، ولن تشم رائحته المميزة التي تصيبها بالانتشاء، أغمضت عينيها وتركت دموعها تنساب بهدوء، حتى سمعت (ياسر) ينادي بصوتٍ مرتفع:

- (زَهرة) هيا.. فلن ينتظر السائق ليله كله هنا.. وبالتأكيد لن نمضي ليلتنا في الشارع!

فتحت عينيها حتى وجدته فاتحًا باب سيارة أجرة، يقف بجوارها منتظرًا أياها أن تركب، أسرعت الخطى حتى استقلت السيارة.. وانطلقا.

***

كانت تصفعه نسمات الهواء البارد، والتي أصبحت قوية بفعل سرعة السيارة، عيناه تصطدمان بأطفالٍ صغار.. يمسكون أيدي ذويهم، وآخرين يأكلون غَزل البنات الوردي بشراهة.. فتتراكم على شفاههم بعضٌ من

شعيرات السكر اللذيذ، فيبدون مثيرين للضحك، لكنه يشعر ولأول مرة منذ وفاة والداه أنه فقد القدرة حتى على الابتسام، روحه متوجعه، وقلبهُ يأبى الاعتدال في نبضه، يجاهد كي لا يبكي، كي لا يظهر ضعيفًا أمامها، ولكنه يفشل.. فتهرب دمعة صغيرة من عينه اليمنى لتلامس ذقنه الخفيفة .. مرورًا بخده الممتليء بعض الشيء .. راسمةً خطًا شفافًا لا يُرى، يفزع ويرفع أنامله بسرعة ليمسحها بحكةٍ قوية تحرقه.

- (مالك)؟؟ ابني أنا في خطر؟... سيموت؟ مستحيل!

يحادث نفسه بكلمات لا معنى لها، جملٌ غير مفهومة، يتمتم بأصواتٍ مبهمة خافتة، لا يسمعها بجواره سائق الأجرة!

***

20 مارس 2001

كانت (زَهرة) طالبة في كلية الخدمة الاجتماعية في سنتها الأخيرة، متوسطة الجمال، طموحة، وتعشق الأطفال عشقًا لا مثيل له، تعيش مع والداها وأخوها الأصغر في مستوى معيشي متوسط، تختبيء داخلها هوايةٌ لا دخل لها بدراستها، الرسم .. فهي تجيده كجدتها، تمضي معظم وقتها في دمج الألوان والضرب بفرشاة الرسم على لوحاتٍ من القماش الأبيض، كان الرسم يخرجها من العالم البائس الذي تجد نفسها تعيش في إحدى زواياه، أو حين تُجبَرُ على التعامل مع نوعيات من البشر لا تطيقهم.

***

3 فبراير 2004

كان (إبراهيم) قد مَلَّ إقناع (ياسر) بوجهةِ نظره، لكنه لن يتركه دون أن يجرب.. فهو لن يخسر شيئًا أبدًا، عاد لإلحاحه بعد أن شرب جرعةً كبيرة من كأس العصير البارد الموضوع أمامه:

- (ياسر).. فَلتَكُفَّ عن اختلاق الأعذار السخيفة.. التي لا مذاق لها، الفتاة تبدو محترمةً جدًا وجميلة بالإضافة إلى أنك رأيت بنفسك تعاملها مع الأطفال، حتمًا شخصٌ مثلها أمضى ثلاثَ سنواتٍ يعمل بين أطفال يتراوحون بين أعمارٍ مختلفة.. ستجيد التعامل مع أبنائها، ستربيهم تربيةً صالحه، ثم أنتَ من طلبت مني أن أبحث لكَ عن فتاة مناسبة بعد أن تقدمتَ لنصف فتيات البلد.. ولم يعجبوك!

رفع (ياسر) حاجبه الأيمن في سخريةٍ واستغراب بعد أن مَلَّ ثرثرة صديقه التي لا تنتهي:

- أنا لم أقل أنهن لم يعجبنني، لكن جميع من اقترحتهن عليّ خاويات العقول! لا يريدون شيئًا من الزواج سوى شقةٍ فاخرة.. هذا إن لم تكن فيلا واسعة في أرقى مكان، وماكينة سحب نقود متنقله متعددةِ الأغراض! ومانيكان أنيق وسيم يتفاخرن به أمام صديقاتهن المختلات!

ثم إنني لم أقل أن تلك الفتاة ليست مناسبة للزواج، أنا فقط لا أعرف كيف سأذهب إلى تلك الدار مرةً أخرى وماذا سأقول لها كي أقنعها أنني لا

أتلاعب بها، هذا إن لم تأخذ فعلًا تلك الفكرة عني بمجرد أن تراني قد ترددت على مكان عملها مرتين في أسبوعٍ واحد بلا سببٍ مُقنِع!

أحاط (ياسر) فنجان القهوة بإصبعيه السبابتين بعد أن أنهى دفاعه عن نفسه أمام اتهامات (إبراهيم) العنيفة.

مسترخيًا في مقعده.. مستنشقًا أنفاسه بسأم، بعد أن ضجر من الحوار برمته وقرر الصمت:

- اسمع يا (ياسر).. افعل ما يحلو لك، فكر بمفردك وخذ قراراتك بمفردك، فهي حياتك تحرقها كيفما شئت، أما أنا فسألتزم الصمت من الآن ولن أتدخل في شئونك مجددًا..

رمق (ياسر) صديقه المفتعل للغضب بزاوية عينه اليسرى ووجهه ملتفت صوبَ أطفال يتناولون بعض المثلجات في طاولة مجاورة، وابتسم في خبث قبل أن يصمت كرفيقه.

***

1 مارس 2012

وقفت سيارة الأجرة أمام بناية مكونة من تسع طوابق، تَرَجَّلَ (ياسر) بعد أن نقد السائق أجرته، تبعته (زَهرة) حتى استقلا المصعد الصاعد إلى الطابق الخامس، صمتٌ مطبق على روحيهما، منعهما من أن ينطق أحدهما

بحرفٍ واحد ليخفف عن الآخر مأساته، قطع الهدوء جرسٌ معتاد أصدره المصعد معلنًا وصوله للدور المطلوب.

دخلت (زَهرة) و(ياسر) الشقة الفارغة من صغيرهما، الشرفة مفتوحةٌ عن أخرها والهواء يقتحم الستائر ويرفعها في غضب، انسحب (ياسر) إلى غرفة النوم بهدوء.. بَدَّلَ ملابسه واستلقى على الفراش، عيناه محدقتان في سقف الغرفة، لم يدرك كم أصبح الوقت.. هل انقضت تلك الليلة الصعبة وأشرقت الشمس؟ أم أنها لن تنقضي أبدًا! استغرق عقله ساعتان تقريبًا حتى هدأ تفكيره ونام نومًا عميقًا، وكأنه يحاول الهرب بعيدًا عن واقعٍ مُوحِش.. واقع بلا (مالك)!

بدأت (زَهرة) منذ ساعتين في رسم وجه ابنها (مالك)، مرَّ وقتٌ طويل على إمساكها بفرشاة رسم، فمنذ زواجها ب (ياسر) لم تحظ إلا نادرًا بفرصة للاختلاء بألوانها ولوحاتها.. بعيدًا عن ضجيج أعبائها المنزلية، وواجباتها كزوجةٍ وأم، ولكن.. أحيانًا تأتي الفرص بعد أن نظنَّ أنها لن تزورنا أبدًا، فلا نستطيع تجاهلها أو الإشاحة بنظرنا عنها!

***

obeikandl.com

(3)

6 فبراير 2004

وقف (ياسر) أمام لوحةٍ كبيرةٍ بدا عليها القِدَم رغم جمال الخط المنقوش عليها " دار الرؤى للأيتام "، قرأ العنوان عدة مرات وهو يعيد ترتيب أفكاره وكلماته التي جاء يلقيها في جعبتها ويذهب!

قرر أخيرًا الدخول بعد أن أوقف سيارته الحديثة بعيدًا عن مدخل الدار، قطع الممرات الطويلة حتى وصل إلى قاعة الاستقبال:

- صباحُ الخير..

بابتسامة رفعت موظفةُ الاستقبال رأسها عما كانت تكتبه:

- صباح النور.. أهلًا سيدي بماذا أخدمك؟

بثقةٍ وابتسامة لم تزل على شفتيه:

- بعد إذنك.. أردت مقابلة آنسة (زَهرة)

- مممم.. تقصد آنسة (زَهرة) في الخدمة الاجتماعية؟

- أجل من فضلك.

obeikandl.com

- حسنًا.. تفضل بالجلوس ريثما أبلغها.. ولكن عذرًا الاسم؟

- (ياسر عبدالعزيز الهلالي)

ابتسمت الموظفة بعد أن أومأت برأسها، ثم أشارت له بالجلوس، أنهت ما كانت تكتبه ثم مدت يدها إلى سماعة الهاتف ضاغطة بأصابعها على أرقامٍ ما ثم بصوتٍ خافت وبضحكٍ كاد ينفجر من حنجرتها:

- صباح الخير يا آنسة (زَهرة)

- (عبير)؟ صباح النور.. ما بكِ ما كل هذا الأدب؟

- ستعرفين خلال ثوانٍ ياعزيزتي الأميرة.. فقط لتكفي عن التشكيك في توقعاتي!

باستفهام ردت (زَهرة):

- أيُّ توقعات! أنا لا أفهم شيئًا..

بحكمة مصطعنة أجابت (عبير):

- حسنًا اهدئي وخذي نفسًا عميقًا.. وأنصحك أن تعدلي من شكلك فالأمير يريد مقابلتكِ يا مولاتي!

- أمير؟؟ أنا لا أعرف أحدًا بهذا الاسم!!

- يا غبية.. إنه (ياسر).. ذاك الوسيم الذي جاء هنا منذ عدة أيام ليتبرع!

obeikandl.com

سرت رعشةٌ خفيفه في جسد (زَهرة) وزاد قلبها في نبضه حين فهمت ما ترمي إليه (عبير).. تداركت (عبير) الموقف وقالت بنبرة حاسمة واضعةً صديقتها أمام الأمر الواقع:

- حسنًا سأجعله يتفضل بالدخول حالًا..

ووضعت السماعة.. ثم أشارت إلى (ياسر):

- تفضل يا أستاذ (ياسر).. المكتب الثاني على اليمين.

شكرها (ياسر) وتوجه بخطواتٍ حاول أن تكون بطيئة ليسترجع بعضًا من الجمل التي قضى ليلَهُ في تحضيرها.

طرقات على باب المكتب جعلت (زَهرة) تنتفض في مكانها رغم خِفَّتِهَا، أدركت سريعًا أن الطارق هو (ياسر).. بصوتٍ حاولت أن يكون عاليًا:

- تفضل..

- صباح الخير يا آنسه (زَهرة)..

- صباح النور..

- هل لي بجزءٍ من وقتك؟

- بالطبع..

obeikandl.com

قالتها وابتسمت، جلس (ياسر) على أقرب كرسيٍ وجده، وبدأ في طلب ما جاء من أجله!

***

- إذن.. وماذا كان ردها؟

- اكتسى خداها بلونٍ وردي.. أو هكذا خُيِّل لي، ثم بعد صمتٍ قصير أخبرتني أنها ستفاتح والدتها في الموضوع وأعطتني رقم هاتفها المنزلي وعنوانها أيضًا، وقالت أنني يجب أن أزورهم في المنزل بعد أن أخبر والدها بمجيئي!

قال (إبراهيم) وقد اتسعت ابتسامته إلى أذنيه:

- جيدٌ جدًا.. أرأيت؟ لم تخسر شيئًا من تلك الزيارة.. وانا أثق أنك لن تخسر شيئًا أيضًا من زيارة منزلها وطلبها من والدها بشكلٍ رسميّ، كما أنني لا أظنهم سيرفضونك، ففيك قدرٌ كبير من الجمال كما أنك مثقف ومستقيمٌ في حياتك وعلى خلق بالإضافة إلى أن مستواك المعيشي ممتاز، عزيزي ليس هناكَ عذرٌ لرفضهم لك.. توكل على الله..

تنهيدة كبيرة خرجت من صدر (ياسر)، وقال وعيناه تتحركان مع تحريكه للسكر في فنجان الشاي أمامه:

- فقط آمُلُ ألا تكون مثلهن، أتمنى من أعماقي أن تكون مختلفة، تكون كما أريد!

***

(4)

14 مايو 2008

لا تذكر (زَهرة) متى بدأت علاقتها بزوجها بالتوتر، كل ما تذكره أن الخلافات زادت، وأن ما كان يعجب إحدى الطرفين في الآخر أصبح بعد ثلاثة أعوام شيئًا معتادًا ومملًا، أو ربما لم يعد ملحوظًا أصلًا، ذات يوم أخبرتها والدتها أنها أمور طبيعية وخلافات موجودة في كل بيت خاصةً مع تأخر الإنجاب، وأن عليها الصبر والاحتمال، ولا مانع أيضًا في بعض التنازل كي لا توقف المراكب السائرة!

ولكن ما كان يحدث غريب! (ياسر) ليس طبيعيًا بالمرة، دائما تجده تائهًا، متلعثمًا في كلماته، يفكر كثيرًا في أشياء لا تعرفها.. وعندما حاولت معرفتها اتهمها بالتطفل! وبأنها أصبحت ثرثارة ولا تطاق!!

لوهلة ربطت حالته المزاجية السيئة بتأخر إنجابها، وسرعان ما فزعت حين مرَّ بتفكيرها فكرة وجود امرأة أخرى قد يهرب إليها! أيعقل أن يفكر في الزواج من أخرى؟ هل سيطلقها أم سيتزوج عليها!

تبعثرت أفكارٌ كثيرة في جوانب عقلها وتَّرَهْا أكثر، لم تدرِ كيف ستتصرف وماذا سيكون ردُّ فعلها إن تحقق شيءٌ من توقعاتها، لكنها ستصبر.. لا تملكُ شيئًا سوى الصبر والانتظار!

****

2 مارس 2012

الشمس تكاد تحرق جفنيه، ذرات من العرق تكاثرت على جبينه والكثير منها أغرق صدره، حرك جسده وحاول إكمال نومه على جانبه الأيمن، ثوانٍ وتقلَّب يسارًا، فتح عينيه ببطء بعد أن أدرك أنه لن يستطيع استكمال نومه في هذه الحرارة الشديدة، رفع جسده وجلس حيث هوَ، نظر حوله.. الأغطية متكومة في آخر الفراش والوسائد متناثرة والصغيرةُ منها ملقاةً على الأرض، دهس إحداها وهو يغادر فراشه متجهًا إلى الصالة، تدور عيناه في الشقة بحثًا عنها، حتى شعر بملمس لزج يغطي أصابع قدمه اليسرى، نزل ببصره يتفحص قدمه.. ليجد لونًا أسودًا قد غطى أسفل قدمه! استغرق دقيقتين حتى أدرك أنه وطأ الألوان المائية التي تستخدمها (زَهرة) في الرسم دومًا، أطلق بضع سَبَّاتٍ على من اخترع تلك المواد المقززة وعلى من يستخدمها أيضًا! جلس على الأرض محاولًا تنظيف قدمه من اللون حتى يستطيع المشي إلى الحمام لغسلها بالماء.

تحركت (زَهرة) في أقرب مكان وجدته ليلة البارحة لتلقي بجسدها فيه، ولتظفر ببعض النوم حتى الصباح، رفع (ياسر) بصره إلى الجسد الذي تحرك للتو والملقى على الأريكة، أدرك فورًا أنها سهرت الليل كله ترسم أو تصنعُ شيئًا ما بتلك الألوان، جاب ببصره المكان حوله حتى وصلت عيناه إلى ما كان يبحث عنه، لوحةٌ يتوسطها وجهٌ اعتاد أن يكون أول ما ينظر إليه كل صباح، وجهٌ ملقى صاحبه في المشفى في انتظار نتيجة التحاليل ثم العلاج، فإما أنه سيشفى ويعود ومعه الربيع إلى بيته ووالِداه، وإما أنه سيترك تلك الحياة البائسة للكبار الذين عاشوها أكثر منه وسيتعذبون فيها بعد رحيله!

سقطت دمعةٌ من إحدى عينيه.. رطبت بشرته الجافة، قام ركضًا إلى الحمام.. فتح الصنبور فتدفق الماء بانسيابيةٍ رتيبة في الحوض الأبيض الدائري، اغترف بكفيه الماء وغسل به وجهه بعنف.. بألم، وكأنه يحاول اقتلاع مظاهر الحزن من ملامح وجهه كي يظل قويًا دائمًا أمامها، انتهى من وجهه فغسل قدميه التي تلطخت إحداهما باللون الأسود الشنيع.

اقترب من الأريكة، حيث وجدها نائمة، تأمل وجهها الذي سكن التعب ملامحه.. فبدت أكبر سنًا، رغم ذلك لم تزل تحتفظ بجمالها البسيط الذي أحبه يومًا، اقترب منها وأزال خصلات شعرها المتناثرة بفوضوية على جبينها ووجهها نتيجة التقلب المستمر:

- صدقيني.. لم أكرهك أبدًا، ولم أقصد يومًا التقليل من شأنك أو تهميشكِ من حياتي، أنتِ و(مالك) سبب استمراري في احتمال الحياة بضغوطها ومشاكلها التي لا تنتهي، كنتِ زهرتي ومازلتِ، لكن كيف لي أن أخبركِ أنني أعرف سبب كلَّ ما يحدث الآن!

تململت (زَهرة) في نومها بعد أن شعرت بحركة غريبة على شعرها، فتحت عينيها لتجده جالسًا على الأرض بجوار الأريكة، قطبت جبينها في استغراب، بابتسامة بادر (ياسر) بالحديث:

- لهذا لم تنامي بالداخل ليلة أمس؟

- ماذا تقصد؟ وما الذي يجلسك هكذا؟!

- ألم تقضي الليل كله في رسم (مالك)؟.. بالمناسبة اللوحة جميلة، ليس لأنكِ تجيدين الرسم بل لأن وجه ابني جميل في الأساس!

لم يكد ينتهي (ياسر) من جملته الأخيرة حتى نكزته (زَهرة) نكزةً قوية في كتفه جعلته يتأوه باصطناع والابتسامة لم تزل على شفتيه:

- هيا انهضي لترتبي ما خلفته من فوضى ريثما أرتدي ملابسي ونتوجه بعدها إلى المستشفى لنرى ما ستصل إليه حالة (مالك).

نهضت (زَهرة) وسبقها (ياسر) إلى غرفة النوم لتبديل ملابسه، أما هي فلم تستطع الرد على كلامه:

- ماذا جرى؟ أَلِمَرَضِ (مالك) دخلٌ في عودة (ياسر) الذي تعرفه؟؟ أكان يجب أن يمرض ابنهما الوحيد كي يعود إلى طبيعته! أم أن هناك سببًا آخر!

لم ترهق (زَهرة) عقلها في التفكير فأمامها يوم طويل وشاق، ومهامٌ عليها إنجازها قبل العودة إلى المستشفى..

***

28 فبراير 2008

التفت (إبراهيم) مخاطبًا (ياسر) الجالس بجواره في المقعد الأمامي للسيارة:

- إذن وماذا أخبرتها الطبيبة؟

بخيبة أمل أجاب (ياسر):

- كالعادة لا شيء.. فقط عليها المواظبة على جرعات الدواء..

بابتسامة محاولًا مد (ياسر) ببعض الأمل:

- سترزق إن شاء الله لا تيأس يا صديقي..

هز (ياسر) رأسه مجاريًا (إبراهيم) في حديثه، بينما عقله كانت تعبث فيه أفكارٌ كثيرة لم يُطلِعْ عليها أحد!

تزوجت (زَهرة) من (ياسر) منذ ما يقربُ من ثلاث سنوات، كانت حياتهما هادئة، خالية من المشاكل المعهودة التي تجدها في كل بيت، كان (ياسر) لطيفًا جدًا مع (زَهرة)، هل أحبها؟ ربما، أو ربما اعتاد على وجودها في حياته، هي كإنسانة لا يستطيع أحد أن يكرهها، رقيقة.. تحب الجميع حتى من يسيئون إليها، ربما تتجنب التعامل معهم، لكنها لا تكرههم أبدًا، تنسى بسرعة كل ما هو سيء.. سواء كانت مواقف أو لحظات أو ذكريات أو حتى أشخاص، تحب الأطفال ناهيك عن خبرتها في التعامل معهم، والتي اكتسبتها من عملها في دار الأيتام، يراها تجلس من حين لآخر أمام لوحةٍ بيضاء لترسم، كان يتحمس كثيرًا لرؤية اللوحة بعد اكتمالها، كان يشجعها.. وكانت تسعد لذلك.

أما هو فقد أحبته كثيرًا جدًا، رأت فيه كل أحلامها، لا تنكر أنه لفت نظرها لأول مرة رأته في دار الأيتام، وأنها صارحت زميلتها (عبير) بذلك،

واستطاعت (عبير) إمساك بداية الخيط فبدأت تتلو عليها توقعاتها بأنه سيعود مرةً أخرى، وأن ظنها لا يخيب أبدًا.. لكنها لم تصدق!

كادت تفقد النطق حين أخبرتها زميلتها في العمل بأنه جاء يريد مقابلتها، واحمَرَّ وجهها حين لامتها على عدم تصديقها لتكهناتها العبقرية!

لم يعكر صفو حياتهما سوى إلحاح والدتها الذي نبههما إلى وجوب الذهاب إلى الطبيب لفحص قدرتهما على الإنجاب! بعد أن مرت ثلاث أعوام لم ينتفخ فيهم بطن (زَهرة) ولم تشكُ من أعراضٍ لأي حمل!

ومنذ ذلك اليوم.. بدأت رحلتهما المتعبة بين الأطباء، لم يهدأ بالهما أبدًا، إلى أن أثبتت جميع الفحوصات والتي أجروها أكثر من عشرين مرة تقريبًا! أن كليهما يستطيع الإنجاب، وأن لا مشاكل هناك.

بدأ الهم يغزو (زَهرة) وظهرت على (ياسر) أعراض قلقٍ مستمر، وبدأت الخلافات تطفو على السطح!

***

obeikandl.com

(5)

3 مارس 2008

جاب (ياسر) بنظره في أرجاء المكان، الجو كئيب، والهواء يكاد يخنقه، هناك رائحةٌ غريبة تملأ المكان وتتسلل إلى جيوبه الأنفية رغمًا عنه، فتثير في أنفه الرغبة في العُطَاس، يرفع إبهامه وسباباته ليفرك بهما أرنبةَ أنفه، فتختفي الرائحة قليلًا..

مال (إبراهيم) برأسه نحو (ياسر)، وبنبرة قلق:

- أنت بخير؟؟

بضجر حاول إخفاءه، أجاب (ياسر):

- بخير.. بخير، فقط الرائحة تخنقني!

****

مرت ساعتين..

المكان مزدحم.. والهدوء يحاول فرض سيطرته على المكان لولا ثرثراتٌ منبعثة من أفواه الجالسين، يحاولون بها قتل الوقت المنقضي في الانتظار!

يخرجُ شابٌ عشريني إلى صالة الانتظار، مهندم الثياب، بشوش الوجه، رغم غرابة ملامحه، والصدق المصطنع الذي يسكن تعابير وجهه..

obeikandl.com

ذو بشرةٍ قمحية، وعينانٍ بنيتان ينبعث منهما دهاءٌ مريب!

تلتفت الرقاب بحركةٍ تلقائية نحو الشاب، فتتابعه وهو يسير بخطواتٍ هادئة.. عملية حتى يصل إلى شابين.. انشغل أحدهما بالعبث في هاتفه المحمول فلم يلحظ ذاك الماثل أمامه، أما الآخر فقد أراح رأسه على الجدار بعد أن استطاعت عيناه المغمضتان أن تسرقا بضع دقائق للنوم..

انتبه (ياسر) إلى ذلك الحذاء الجلدي الأنيق الذي أصبح فجأة يقف أمام قدميه ببضعةِ أمتار، رفع نظره.. فبادر الشاب بالسؤال:

- دكتور (إبراهيم) وأستاذ (ياسر)؟

حرك (ياسر) رأسه بنعم استفهامية، فجاءه الرد على استفهامه سريعًا:

- تفضلا بالدخول..

وأشار بيده اليسرى نحو تلك الغرفة التي غادرها منذ قليل..

***

كانت تفترش الأرض، تحيطها الوسائد من كل جانب.. وسائد منسوجة بحرفية وفخامة، ورغم فخامتها فألوان الخيوط التي طُرِّزتْ بها كانت محدودة، تحصيها العين وتعتادها في غضون ثوانٍ بمجرد إلقاء النظرة الأولى عليها، ألوانٍ غامقة.. كئيبة، هواءُ باردٌ يملأ الغرفة، أو ربما هو فقط من داهمه ذاك الشعور بالبرودة!

نفس الشاب الذي دعاهما للدخول منذ قليل، كان يقف خلفهما مراقبًا تعابير وجههما التي امتلأت بالرهبة فجأة..

- تفضلا بالجلوس.

صوتٌ خفيض انبعث من حنجرة الشاب، تلته إشارة من يده إلى مكانين متجاورين أمامها مباشرة، مكانين صنعتهما الوسائد فأصبحا ككرسيين مريحين، تقدم (إبراهيم) ومن خلفه (ياسر) حتى جلسا.. ولا تزال أعينهما تتفحصها باستغراب!

***

كانتْ عجوزًا، رغم كمية المساحيق التي لوثت بشرتها السمراء، والتي ربما حاولت باستخدامها أن تضفي بعض الشباب والنضارة على وجهها، عيناها البنيتان كانتا مثبتتين في فنجان القهوة الذي تحرك مراتٍ عديدة بين شفتيها والصحن الصغير الذي يرافقه، يغطي رأسها قطعة قماشٍ تشفُ شعرها الأبيض الخفيف، أمامها على الأرض.. تناثرت بعض الأصداف البحرية جميلة الشكل بالإضافة إلى مجموعة من أوراق التاروت.

مرَّت ثوانٍ معدودة جلس فيها (إبراهيم) و(ياسر) في مكانيهما أمامها، بحركةٍ من كفها انسحب الشاب سريعًا مُغلِقًا باب الغرفة خلفه.. فاختفت الضوضاء، تلك التي كانت تنبعث من حناجر الزبائن الجالسين بالخارج في انتظار دورهم في الدخول.

انتهت من رشف آخر ما تبقى في فنجانها فقلبته رأسًا على عقب في صحنه الصغير ونَحَّتهُ جانبًا، كان (إبراهيم) وقتها يتأمل ملامحها بنظراتٍ استكشافية متأملة، لكنه حين اصطدمت عيناه بعينيها الجاحظتين والتي أحاطتهما تجاعيد العجز.. ارتبك فجأة، وسرت في جسده قشعريرةٌ خفيفة زالت بسرعة ليرسم بعدها ابتسامةٌ ساذجة على شفتيه.. فتتجاهله!

تتحول بنظرها غير مبالية إلى (ياسر) الذي كان مشغولًا بتأمل الأصداف المتناثرة أمامه فلم يلحظ نظراتها المتفحصة له..

- أتعجبك؟

قالتها فرفع (ياسر) نظره إليها ليجد عينين واسعتين.. جاحظتين تتأملانه بعمق، فأجاب بعد أن حاول إبعاد عينيه عن مجال نظرها:

- أ.. قليلًا.. فقط شكلها غريب بعض الشيء!أ

- وما تعرفه أغرب.. فيها تسكن الأسرار.. ومنها تولد الأخبار!

قالتها بلهجةٍ درامية، وابتسامة حملت معانٍ كثيرة، زادت بها فضول (ياسر) وهو الذي لم يؤمن يومًا بما تمتهنه تلك العجوز.

التفتت إلى (إبراهيم) الذي كان يتابع حوارهما ونظرات البلاهة تُغْرِقُ عيناه فيبدو وكأنه أصيب بخلل في مراكز الفهم والتحليل في دماغه، قطعت محاولاته الفاشلة في الفهم فقالت:

- إذن دكتور (إبراهيم) أتيت إلى هنا لتعرف ما سيحدث لك مستقبلًا!

حرك (إبراهيم) رأسه مؤكدًا على كلامها، ولم يكن لديه الشجاعة ليسألها كيف عرفت سبب مجيئه، ولكن كيف لها ألا تعرف! ظل (ياسر) صامتًا منصتًا لما يدور بينهما، بينما تابعت كلامها الموجه إلى (إبراهيم):

- إذن اقترب من فضلك..

نهض (إبراهيم) من مكانه ملبيًا طلبها، ليجلس مواجهًا لها مباشرةً يفصل بينهما مجموعة من أوراق التاروت مجمعة فوق بعضها، مدت يدها لتأخذ الأوراق وتعيد ترتيبها بطريقةٍ عشوائية، ثم ما لبثت أن بدأت في تفريقها على الأرض في المساحة الفارغة بينهما.. واحدة تلو الأخرى بمهنيةٍ عالية.

***

1 مارس 2008

بعصبيةٍ بالغة انفجر (ياسر) صائحًا:

- أجننت يا (إبراهيم)؟؟ أتريدني أن أذهب معك إلى عرافة!

بأعصابٍ هادئة حاولَ (إبراهيم) أن يقنع (ياسر) ليلبي طلبه المجنون:

- أنا لم أقل أننا سنصدق كلامها، إنها فقط الرغبة في كسر الروتين والملل الذي نحن فيه، ثم إنني لم أطلب منك أن تأتي معي لتجرب، أنت فقط ستكون مرافقًا لا أكثر، اطمئن.. فلن أجبرك على شيء.

- وأنا لم أقل أنك ستجبرني على شيء.. فلن تستطيع أصلًا! أنا أحدثك عن مبدأ، ألا تعلم أن كل هذا كلامٌ فارغ؟ وأنها مجرد حيلٍ لجني المزيد من الأموال، وكله على حساب مشاعر ضعفاء النفوس والأغبياء أمثالك!

- ولكني أخبرتك أنني لستُ من هذا النوع الذي يركض وراء المنجمين كلَّ فترة ليطلع على مستقبله، فأنا والحمد لله حياتي مستقرة كما تعرف وأعلم أيضًا أن كل هذا نصبٌ واحتيال، خُذ الأمور ببساطة يا (ياسر)، كل ما في الموضوع أنه فضولٌ بشري لا أكثر! ألا تشعر بفضولٌ لرؤية تلك المرأة؟

كان كلام (إبراهيم) يخترق عقل (ياسر) الذي أنهكه مؤخرًا بتفكيره المفرط، ومحاولاته البائسة في الصبر والانتظار، (ياسر) الذي لم يقم يومًا بالتنازل عن مبادئه، لم يفعل شيئًا يتنافى مع أفكاره ومعتقداته، لم تؤثر عليه الظروف مرةً ليتخلى عما ينتهجه طوال حياته، ولكنه الخوف من المستقبل، الخوف الذي ينخر في صمامات قلبه ليهزه تدريجيًا وببطءٍ موجع، الخوف من أن يُجبر على تركها، وهي التي اختارها من بين الكثيرات، هي التي ملأت روحه ابتهاجًا، وحياته نورًا ورضا، زهرته التي ربما يُجبر على إهمالها يومًا، ليحول اهتمامه لأخرى ستشاركها فيه، فقط لأنها لم تنجب!

بإصرار كان (إبراهيم) ينادي على (ياسر) الذي صمت فجأة ليغرق في أفكاره وأحاديثه بينه وبين نفسه، محاولًا اقتحام شروده:

- (ياااااسر).. لم تجب على كلامي!

التفت (ياسر) إلى حيث جلس (إبراهيم)، وقال:

- حسنًا سأرافقك لكن بشرط..

حرك (إبراهيم) رأسه مستفهمًا، فبادر (ياسر):

- ستكون أول وآخر مرة أرافقك فيها لمثل تلك الأماكن، أتفهم؟

***

obeikandl.com

(6)

3 يوليو 2008

كانت (زهرة) قد وصلت للتو من المعمل، بعد أن تسلمت نتيجة تحاليلها الأخيرة، لم تكن تمتلك رغبة في تصفح أوراق النتائج، فهي تعرف ما دُوِّنَ فيها، النتيجة سالبة.. وكالعادة ستضيفها إلى كومة الأوراق التي احتلت درجها الخاص مؤخرًا، أوراق تصرخ منذ سنوات بالحقيقة، لكنها لم تُعرها اهتمامًا، ولم تصدقها يومًا، دائمًا هناك شيءٍ بداخلها مازال ينبض أملًا ويقينًا بقدرة الله سبحانه، لحظات يأسٍ قليلة كانت تداهمها، لكنها سرعان ما تقتلها بدعاءٍ اعتاد لسانها ترديده "ربِ لا تذرني فردًا وأنت خيرُ الوارثين".

كانت قوية، رغم الضعف الذي حاول مرارًا التسلل إلى روحها، ولكن بمَ تختلف هذه المرة عن المرات السابقة؟ حتمًا ستكون نفس النتيجة، وستصاب بخيبة أمل إضافية لا داعي لها..

أخيرًا قررت.. ستفتح الدرج، وستلقي بالأوراق الجديدة فوق القديمة ليزيد عددها، ستغلقه سريعًا، وستخلد للنوم هربًا من أفكار امتهنت إيلامها مؤخرًا.

***

مغمضة العينين، مستسلمة لنوم غزا جسدها بسرعة.. فلم تقاوم، نامت كما لم تنم يومًا منذ الأحداث التي احتلت حياتهما في الآونة الأخيرة، استغرقت في النوم حتى أنها سمحت للأحلام بالتفكير في زيارتها مجددًا!

حرك (ياسر) المفتاح في باب الشقة فدار ليصدر صوت رضوخ القفل له وليُفتح أخيرًا، يدخل مغلقًا الباب خلفه، باحثًا بعينيه في أرجاء الشقة عن (زهرة)، متوجهًا إلى غرفة نومهما بعدما لم يجد في الخارج سوى الفراغ، بخطواتٍ هادئة دلف إلى الغرفة متجنبًا إيقاظها.. لكنها أحست بوجوده ففتحت عينيها لتجده أمامها.

- سأبدل ملابسي وأخرج حالًا.. عودي للنوم

- لا عليك.. لقد استيقظت.

بروتينيةٍ ألقى بسؤاله على مسامعها متوقعًا الإجابة:

- اليوم نتيجة التحاليل أليس كذلك؟

بادرته بالإجابة بعد أن اعتدلت في فراشها :

- نعم.. لقد ذهبت وتسلمتها وعدت منذ حوالي ساعتين.

- يبدو أن شيئًا لم يتغير، النتيجة كما هي.

بلامبالاة أجابته بعدما أشارت بيدها إلى الدرج المجاور للسرير:

- لم أفتحها.. ستجدها هنا مع البقية..

اقترب (ياسر) مادًا يده باتجاه الدرج، بهدوء فتحه، فكشف الأخير عن مجموعة ملفات ذات ألوانٍ مختلفة وضعت بداخلها أوراق بيضاء منقوشٌ عليها الكثير من الجمل والجداول باللغة الإنجليزية، تنهد فخرجت أنفاسه ببطء، بعد أن وقعت عيناه على واحدٍ وُضع أعلى البقية يشير إلى تاريخ اليوم، سحبه وأخذ يقرأه قراءةً سريعة، بعدما ألِفَ ما به من مصطلحات طبية وأرقامٍ لا تتغير!

***

كانت ترقبُ ملامحه باهتمامٍ بالغ، وقد أغرقته بنظراتٍ عارفةً بحاله، لكنه لم يكن يعلم، لم يكن يعلم أنها تراقبه، تتفحص ملامح وجه وكأنها اعتادت رؤيتها، لم يكن يعلم ما تفكر فيه، ولا ما تريد قوله، لم يكن يعلم ما بات في نيتها أن تفعله، الحقيقة أن أحدًا لم يتخيل ما ستنطق به!

- لم تنجبا بعد..

قالتها فدُهش! أكانت تحادثه؟ أم كانت تحادث (إبراهيم)؟؟ ولكن (إبراهيم) لم يتزوج بعد، إذن فهي تقصده، تحادثه هو، كيف عرفت! سرت في جسده قشعريرةٌ سخيفة، ظهر على إثرها ارتباكه، رفع عينيه من شاشة هاتفه المحمول والذي كان قد انهمك فيه طلبًا لإهدار الوقت إلى حين انتهاء تلك الزيارة الثقيلة على مبادئه.

- ولن تنجبا قريبًا!

كانت مفاجأتها الثانية التي أوجعته وبشدة، إنها تعرف إذن، وأي معرفة، إنها تعرف الكثير، كلمات ترددت في ذهنه فتشتت، ضاع بين ما كان يظنه صوابًا وما اقتحم عقله منذ ثوان.

بداخله وُلِدَ فضولٌ شديد لمعرفة ما تقصده وما تعرفه، فضولٌ ممزوجٌ بخيباتِ أملٍ تكاثرت بداخله فجأة لكن.. ربما استطاع قتلها إن تجرأ وسأل!

- وكيف عرفتِ؟!!

أخيرًا نطقها لسانه، فأجابت:

- أنت هنا لأن جزءٌ منكَ يعرفُ أنني أعرف، لا لتعرف كيفَ عرفت! لم تأتني برغبتك، جئت لترافق صديقك، هذا ما تظنه، لكن الحقيقة التي تجهلها عن نفسك غير ذلك تمامًا، أتيت لتعرف ما سيحدث، أتيت لأنك تحبها، رغم ماحدث بينكما مؤخرًا من مشاكل، تخاف أن تُجبَر على الزواج بغيرها، لكن اطمئن سيتلاشى مصدر خوفك وأرقك، وستنجبا.

جميلٌ سيكون ولدك، كاليوم سيأتي، لكن احذر.. فسوءُ الحظِ سيكون توأمه، لن يفارقه، وربما قتله يومًا، وإن حدث فسينفطر قلبها وقلبك، وستتمنيا لو لم يكن!

***

2 مارس 2012

تقف أمام فراشٍ ضَمّ صغيرها بين أغطيته البيضاء المميزة، كان مستغرقًا في النوم فلم يشعر بقربها منه، أوشكت عيناها أن تدمع لتبوح بما يختلج في صدرها من قلقٍ وهلعٍ اغتالاها منذ أن سرق المرض صغيرها على مرأى منها، مدت يدها لتتحسس خده الشاحب، تريد فقط أن تستعيد ملمس بشرته، تريد أن تخلصه من تعبه، ليتها فقط تستطيع أن تمنحه عافيتها لينهض وتضمه إلى صدرها مرةً أخرى، لتشتم رائحته، وتستنشق أنفاسه لتدب الحياةُ فيها من جديد.

- إحم.. سيدة (زهرة) عذرًا..

قالها دكتور (محمد) فتداركت (زهرة) نفسها، جففت دموعها سريعًا قبل أن تنهض من مكانها لتقف مواجهةً له.

- أخبرتني الممرضة أنك وصلتِ فتوقعت أن أجدكِ هنا.

- نعم.. وصلت للتو.. كنت فقط أطمئن عليه ريثما تأتي

- حسنًا دعينا نتحدث خارجًا من فضلك

هزت (زهرة) رأسها موافقة قبل أن تتبعه إلى خارج الغرفة، وفي ممرٍ طويلٍ بارد، تتطاير فيه رائحة الأدوية والمطهرات والموت أحيانًا، وقف دكتور (محمد) تواجهه (زهرة) حيث بدأ بشرح حالة (مالك):

- سنقوم اليوم بأخذ عينة من السائل النخاعي المحيط بالمخ لتحليله، بالإضافة إلى أشعة رنين مغناطيسي على المخ، وأشعة عادية على الجمجمة

obeikandl.com

والجيوب الأنفية، يجب أن تعلمي أن العينة مهمة جدًا حيث ستؤكد لنا حقيقة إصابته بالحمى الشوكية وفي حالة تأكدنا من الإصابة الفعلية بالمرض سنقوم عندها بتحديد نوع البكتيريا المسببة للعدوى لنقدم على أساسها العلاج المناسب،

كانت تنصت إليه في محاولة لاستيعاب ما يقول، فتابع:

- ولكن يجب أن أنبهك لشيءٍ مهم، علينا المبادرة بالعلاج الفوري قبل التأكد من التشخيص، لذلك ستقوم الممرضة بعد قليل بإعطاءه مضادًا حيويًا مؤقتًا لحين التوصل لنوع البكتريا والذي على أساسه سنقرر أي مضادٍ حيوي يصلح له، أما بالنسبة لحرارته المرتفعة فقد قمنا بإعطاءه إسيتامنوفين وهو خافض للحرارة، هذا..

- دكتور (محمد صالح) مطلوب في الاستقبال.. دكتور (محمد صالح) مطلوب في الاستقبال..

دوى صوت ممرضة الاستقبال في أرجاء المستشفى.

- هذا كلُ ما لديَّ الآن، غدًا على الأكثر ستظهر نتيجة العينة وسأبلغكما بها فلا داعي للقلق، أستأذنك.

وانصرف.. تاركًا إياها في دوامة أفكارٍ لا تهدأ، ليس بيدها الآن سوى الصبر والانتظار، وهي لم تعد تجيد سواهما في الفترة الأخيرة.

***

(7)

التفتَ إلى حيث جلست على الفراش، لم تنتبه لعينيه الدامعتين، ولا ليديه اللتين أخذتا في الارتجاف بفعل الصدمة، أكان ما قرأه حقيقة؟! أعاد نظره إلى الأوراق التي أخذت تهتز بين أصابعه، قرأها مرارًا وتكرارًا ليتأكد أنه لم يكن يهلوس، التفتت إلى حيث وقف منذ عشر دقائق، وجدته يحدق فيها، وقد تبللت ذقنه الخفيفة بالدموع!

بدهشةٍ سألته:

- (ياسر) ما بك؟ لـ..

لم يمنحها فرصة لتكمل سؤالها لأنه كان قد احتضنها وبلل كتفها بدموعه التي زادت فمنعته الحديث، كان قلبه ينبض بشدة، شعرت به ينتفض بين ضلوعه، كما شعرت برجفة جسده التي لا تعرف لها سببًا حتى الآن.

- أجبني ماذا حدث؟؟ لِمَ كل هذا البكاء؟ لا تفزعني يا (ياسر)!

- لماذا لم تخبريني؟

- أخبركَ بِمَ؟!

- بأنكِ حامل يا (زهرة).. بأنكِ حاااامل!!!

***

لم ينطق أيٍ منهما بكلمة، كانا قد خرجا للتو من تلك الجلسة التي استغرقت ساعتين تقريبًا، ركبا السيارة سريعًا، بعد أن لامس وجهيهما رذاذ الماء القادم من السماء والمنذر بهطول المطر.

ظلَّ الصمت يعم المكان حتى بدأ (إبراهيم) بالحديث:

- أنا آسف.. صدقني لم أتوقع أن يحدث هذا، لكنها غلطتي منذ البداية فقد أصررتُ على مجيئك معي.. أنا حقًا آسف.

- لا تعتذر يا (إبراهيم)، لم تكن غلطتك، أنت طلبت مني المجيء وأنا وافقت.. هذا كلُ شيء.

كانت تدور في ذهنه أسئلة تتزايد كل ثانية، أسئلة ليس هناك من يستطيع منحه إجاباتٍ شافية لها، صراعٌ كبير بين ما كان يظن نفسه متمسكًا به، وبين ما قالته تلك العجوز!

تُرى أكانت صادقة؟ لالا مستحيل! هو يعلم جيدًا أن أمثالها يجيدون الكذب والاحتيال، ولكنها تعرف عنه ما يعرفه وما لا يعرفه عن نفسه!

ليس شرطًا، فربما كان لها مصادرها الخاصة التي تمدها بالمعلومات عن زبائنها، ثم تدعي بعد ذلك أنها تعرف الكثير، لا يهم، فحتمًا ستثبت الأيام صدق كلامها، أما الآن فهو في أمس الحاجة للنوم.. النوم بعمق لينسى كل شيء!

***

1 ديسمبر 2008

كانت تشعر بحركاته التي لا تهدأ في أحشائها، وكأنه لم يعد يمتلك صبرًا إضافيًا للبقاء في رحمها إلى حين موعد ولادته ، اليوم أكملت (زهرة) الأشهر الست في حملها، كانت سعيدة.. سعيدةً جدًا، فقد استجاب الله لدعواتها المتكررة، والتي لم تَملَّ يومًا من ترديدها، فلم يَخِب ظنها أبدًا في قدرته ورحمته ليرزقها أخيرًا بطفلٍ صغير ينمو بداخلها شهرًا بعد آخر، وليخلق هذا الطفل بداخلها حنانًا وعطفًا واهتمامًا مميزًا تجاهه، إنها الأمومة أخيرًا، أخيرًا ستصبح أمًا!

***

2 مارس 2012

بدأت (زهرة) بسرد ما أخبرها الطبيب به على مسامع (ياسر) الذي استوعب الكلام جيدًا، فحرك رأسه دلالة فهمه قبل أن يقول:

- لا تقلقي.. سيكون كلُ شيءٍ بخير، فقط لا تبخلي عليه بدعواتكِ

- لم أبخل يومًا.. أنت تعرف، حتى قبل مجيئه إلى هذه الحياة!

اهتز هاتفه المحمول والذي استقر في جيبه، بحثَ عنه حتى وجده فانتزعه بسرعة لينظر إلى شاشته المضاءة باسم (إبراهيم) ورقمه، ضغط زر الإجابة قبل أن يأتيه صوت صديقه عبر السماعة:

- (ياسر) صباح الخير

- صباح النور

- كيف حالك؟؟ وكيف حال حبيبي الصغير؟

بتعبٍ وإرهاقٍ واضحين:

- الحمد لله على كل حال.

- ما بك؟ ألم تنم جيدًا؟

- لا.. (مالك) مريضٌ جيدًا، اصطحبته أنا و(زهرة) إلى المستشفى أمس.

- وهل رآه الطبيب؟

- نعم، يشك بأنه مصاب بحمى شوكية.

- حمى شوكية!!! كيف ذلك!

- لا أعرف، طلب أن يبقى في المستشفى لبضعة أيام إلى حين التأكد من ذلك، واليوم سيجرون له بعض التحاليل.

- شفاه الله يا عزيزي، سيكون بخير إن شاء الله، سأحاول الانصراف مبكرًا من العمل وسآتي لزيارته.

- إن شاء الله.. بانتظارك.

***

obeikandi.com

(8)

3 مارس 2009

كان (ياسر) قد استنفذ ما تبقى من صبرٍ وهدوءٍ في نفسه، فأخذ يجوب الممر ذهابًا وإيابًا، كان يدعو.. يدعو من أعماق قلبه أن يسير كُلُّ شيءٍ على خير، فقط لو يُفتح هذا الباب الموصد لأربعِ ساعاتٍ ماضية ليكشف له عن زوجته وطفله الذي لم يستنشق الحياة بعد، أو ليخرج أحدهم فيُطَمئِنَ قلبه المضطربه دقاته ويريح تفكيره الذي بدأ القلق بهشه، لكن لا بابٌ يُفتح.. ولا قَدمٌ تَخرج، وهو لا يملك شيئًا سوى الانتظار والإنصات إلى الآيات التي تتلوها والدة (زهرة) بخشوعٍ وصبر تقطعها أحيانًا لتدعو لابنتها بضع دعواتٍ صادقة ثم تعود لتتلو من جديد..

****

- سنسميه (مالك)!

قالتها (زهرة) وقد أحاطت جسده الصغير بذراعيها لتضمه إلى قلبها الذي امتلكه منذ خُلقَ مُضغةً في رحمها، (مالك) مالكٌ لروحها وقلبها قبل عينيها اللتين رآتاه منذ أربعٍ وعشرين ساعةً فقط!

بابتسامة، ردت والدة (زهرة):

- اسمٌ جميل يا ابنتي، جعله الله من الذريةِ الصالحة..

أما (ياسر) فلم يسمع من حوارهما شيئًا، كان غارقًا في عينا صغيره الواسعتين، كان يتأمله.. يتأمل كل تفصيلةٍ فيه، كم انتظره.. كم تاقت روحه إليه.. كم طلبه من ربه.. وكم ظن أنه لن يأتِ أبدًا!

***

2 مارس 2012

كانت الشمس قد لملمت أشعتها استعدادًا للغروب، لتشرق على نصفٍ آخر من الكرة الأرضية لا يسكنه وجعٌ كوجع (زهرة)، صغيرها الوحيد أُخِذَ منذ قليل إلى غرفة العمليات لأخذ عينة من دماغه وهو لم يتعد السنوات الثلاث، ابنها مريض.. مريضٌ جدًا، وربما فقدته في أيةِ لحظة!

المقعد يهتز مع هزات قدمها الروتينية التي توالت منذ أُغلِق باب غرفة العمليات على (مالك)، التوتر والقلق والخوف يغزون تفكيرها من جديد، عيناها مثبتتان على أرضية المستشفى.. لا تتحركان.. لا ترمشان، حتى بدأتا تلمعان نتيجة احتشاد الدموع فيهما، سقطت الأولى بهدوء تلتها الثانية فالثالثة، تحرك حاجباها ليعبسان ولينذراها بانهيارٍ قريب، حتى دخلت قدماه مجال بصرها الذي انحصر في الأرضية فرفعت وجهها.. ليمتد كفه على وجنتها فتذوب الدمعات الباقية هناك بين خطوط كفه.

- سيكون بخير.. اهدئي.

قالها (ياسر) قبل أن يتخذ مكانه على مقعدٍ مجاورٍ لها، ثوانٍ حتى امتدت ذراعه لتحيط كتفها فمالت باستسلامٍ نحوه، كم تاقت لاهتمامه ،كم اشتاقت لحنانه، كم افتقدته!

- أين كُنت؟

سألت (زهرة) فخرج صوتها متقطعًا مبحوحًا خفيضًا بالكاد استطاع (ياسر) سماعه.

- (إبراهيم) كان هنا.. جاء ليطمئن على (مالك)، تحدثنا قليلًا ثم رحل.

اكتفت (زهرة) بالإجابة، فهزت رأسها ثم استكانت على كتفه، أما هو فلم يستطع إيقاف كلمات (إبراهيم) التي لم تمل قَرع ذاكرته منذ قرر الأخير إنعاشها قليلًا!

***

15 إبريل 2009

يتحرك الهاتف المحمول من مكانه على المكتب بضع سنتيمترات، فيلتفت (ياسر) إلى حيث وضعه فوق مجموعة من الأوراق المتراكمة على مكتبه، تضيء الشاشة بكلمة (زهرتي) فيتوقف عما كان يكتبه، لتمتد يده اليمنى، يرفع الهاتف تجاه أذنه بعد أن ضغط زر الرد:

- أهلًا (زهرة)

- أهلًا عزيزي.. وصلتَ الشركة؟

- نعم، منذ نصف ساعة، ألم تغادري المنزل بعد؟

- لا، كُنت أحضر أغراض (مالك)، أخبرتك أنني ربما أقضي عدة أيامٍ معها، لذا لا أريد أن ينقصه شيء.

- حسنًا.. انتبهي لنفسك وللولد، وهاتفيني عند وصولك لأحادثها.

- إن شاء الله.

***

كانت (زهرة) قد وصلت للتو إلى منزلها القديم.. منزل عائلتها وطفولتها، المنزل الذي أصبح خاليًا من الحياة التي كانت تعج به منذ زمن، لم يعد صوت أبيها يعلو في الشرفة.. يحادث جيرانه، أو ينادي على الباعة الجائلين تحته، لم يعد هنا لينهرها عن خطأ اقترفته، أو ليكافئها بقطع الشوكولاته التي كانت تعشقها، حتى (زياد) أخوها الصغير المدلل، الذي تمنته فتاة.. فقتل أمنيتها ليخرج من بطن أمها ولدًا! ولتحتاج لوقتٍ طويل حتى تستطيع والدتها إقناعها بأنه هدية الله، وأنها يجب أن تحبه وتعتني به لأنه شقيقها الوحيد ولأنها الكبيرة، أخوها الذي غادرها سريعًا بعد أن حصل على فرصته للعمل بالخارج فلم يجرؤ على الرفض.. ولأن ذلك كان حلمه الكبير الذي سعى كثيرًا لأجله.. تخلى عنها وعن والديه لأجله، لم يسمح لعقله أن يفكر مرتين، في يومٍ وليلة حزم حقائبه ورحل.. دون تردد، دون حزن!

- حبيبتي هل أتيتِ؟

انبعث صوتٍ أنهكه الزمن انتظارًا وفقدًا من غرفةٍ داخلية.. لينقذ (زهرة) من ماضٍ قرر فجأة العصف بذاكرتها، فردت:

- أجل يا أمي.

خطت (زهرة) عدة خطواتٍ حاملةً بين ذراعيها (مالك) ذو الشهر ونصف، قادتها قدماها نحو غرفة والديها والتي تذكرت فجأة تفاصيلها جيدًا، وكأنها ما كفَّت يومًا دخولها، توقفت عند الباب لتدور بعينيها جيدًا، تتفحص الأثاث.. السرير، الوسائد، النافذة المطلة على شارعٍ جانبي، الستائر البيضاء التي استحالت صفراء مهملة، ساعة الحائط القديمة التي لم تتوقف عقاربها يومًا، تفحصت جميع جدران الغرفة وما ثُبِتَ عليها من صورٍ قديمة لوالديها معًا، تأملت كلَّ شيء، حتى وصلت عينيها لجسد والدتها الممدد على السرير متدثرًا بالأغطية رغم حرارة الجو.

- كيف حالكِ الآن؟؟

- أصبحت بأفضلِ حال عندما رأيت هذا الصغير، أعطينيه.

مدت (زهرة) ذراعيها لتلامس ذراعي والدتها، التي اعتدلت في فراشها لتستطيع أخذ الصغير منها.

***

2 مارس 2012

يُفتح الباب أخيرًا ليخرج دكتور (محمد) بزيه الأزرق المميز، يزيح الكمامة البيضاء التي غطت نصف وجهه، فتنتفض (زهرة) من مكانها يتبعها (ياسر) مسرعًا، ليستطيعا الظفر ببضع دقائق منه.

- طمئنِّي أرجوك!

قالتها (زهرة) بإرهاق، ليرد بروتينية محاولًا إضفاء شبح ابتسامة على شفتيه ليبدو مُطَمئِنًا للحظات:

- كلُّ شيءٍ بخير، لا تقلقوا.. أخذنا العينة وسنقوم بتحليلها كما سبق وشرحت، وستظهر النتيجة خلال يومين أو ثلاثة على الأكثر وخلال هذه الفترة سنجري الأشعة على المخ والجيوب الأنفية، أما الآن فسيتم نقله إلى غرفته.. أستأذنكم!

قالها وانصرف ولم يمنحهما فرصة شُكره حتى، تبعه (ياسر) بعينيه وهو مسرع الخطى في ممرٍ طويل حتى اختفى في إحدى الغرف.

***

(9)

20 نوفمبر 2009

شهران انقضيا وهي تلازمه، تشاركه المنزل ذاته، تستيقظ صباحًا تلاعبه وتجالسه، وتحمل همه عن والدته، ربما كان جسدها المرهق يحتاج عنايةً واهتمامًا أكثر، لكنها لم تكن تأبه لتحذيراته الأخيرة والمتكررة، أنفاسها التي أصبحت تضيق مرةً بعد أخرى، والألم الذي ما مَلَّ يفتش عن طريقه لمفاصلها وعظامها، لكنَّ روحها سعيدة رغم كل شيء، والسحر الذي تراه في عينيه كلما غرقت فيهما ظَلَّ يسرقها لحظات عمرها واحدةً تلو الأخرى فتنسى وجعها في كل مرة.. حتى أوشك جسدها على الانهيار!

- أمي.. إلى متى ستظلين على هذا الحال، ترهقين جسدكِ كثيرًا، وآلامكِ تزداد ومع ذلك لا تكترثين!

قالت (زهرة) بنبرة يأس، رغم ذلك لم تستطع إقناع عيني والدتها المشغولتين بما يفعله (مالك) من النظر إليها أو حتى الالتفات، لكن الرد جاءها مكررًا جاهزًا لم تتحمل والدتها عناء التفكير فيه:

- أخبرتك سابقًا ولمراتٍ عديدة بأنني أعلم بأنها أعراضٌ خطيرة، وأنها في تزايدٍ مستمر، وأنه ربما يكون جسدي مصابٌ مرضٍ ما، ولكن يا عزيزتي أنا امرأةٌ تجاوزت السبعين من عمرها، ربما لم يبقى لي في هذه الحياة المزيد لأعيشه، لا أريد أن أقضي ما تبقى لي في تعاطي الأدوية والمسكنات

واستنشاق رائحة المستشفيات المثيرة للغثيان، جسدي لن يصمد طويلًا صدقيني.. أشعر بذلك وأعلمه جيدًا، أرجوكِ دعي روحي تستمتع بتلك اللحظات التي أقضيها مع (مالك)، أنتِ لا تدركين مقدار السعادة التي يمنحها هذا الصغير لقلبي، نحن يا (زهرة) لا ندرك قيمة تلك الأنفاس التي تخرج من رئاتنا هباءًا في هذه الحياة إلا عندما نستشعر اقتراب النهاية!

***

5 مارس 2012

كان (ياسر) قد جلس مواجهًا لمقعد (زهرة)، كلاهما لم يظفر بعدد ساعاتٍ كافية من النوم بعد تلك المكالمة، الحقيقة أن جفونهما لم تُغمض لخمس دقائق حتى، كانت (زهرة) شاردة في صورٍ لأطفالٍ أصحاء يبتسمون ويلعبون، صورٌ تناثرت على جدران المكتب كدلالةٍ على تخصص الطبيب، أما (ياسر) فكان ينظر لوجهها من حينٍ لآخر، الوجه الذي سكنته ملامح امرأةٍ آخرى غير زوجته، هالاتٌ سوداء بدت واضحةً جدًا تحت عينيها، جفنان منتفخان، بشرةٌ شاحبة فقدت لونها.

قطع تفحص عينيه دخول دكتور (محمد) إلى المكتب حاملًا ظرفين كبيرين وآخر صغير، وضعهما برفق على المكتب أمامه قبل أن يجلس ويرحب بهما ليبدأ بسرد ما هاتفهما لأجله:

- أهلًا بكما.. وأعتذر عن هذا التأخير، فقد كنتُ أمر على بعض الغرف، إذن لندخل في الموضوع؟

بنظرات رجاء، وابتسامة حاول بها أن يبدو صامدًا لبضع دقائق أخرى هز (ياسر) رأسه بـ:

- تفضل رجاءًا.

بادل دكتور (محمد) (ياسر) ابتسامةً مصطنعة، بينما أصابعه كانت تعبثُ في محتوى الملف الصغير، ثوانٍ حتى أخرج الأوراق التي كانت تحويه ليبدًا بشرح ما كُتب فيها:

- أولًا لدينا هنا نتائج العينة التي أُخذت من (مالك)، قام المعمل بتحديد نوع البكتيريا، وللأسف هذا النوع تحدث العدوى به عن طريق استنشاق رذاذ الهواء الملوث بالبكتيريا، فتدخل بدايةً إلى الجهاز التنفسي وتتكاثر، ثم تنتقل عن طريق الدم إلى الجهاز العصبي وتحديدًا إلى أغشية الدماغ لتفرز سمومها هناك.

توقف فجأة عن الحديث لتعبث أصابعه في الظرفين الكبيرين ليخرج منهما أوراق بلاستيكية سوداء اللون ظهرت عليها آثارٌ بيضاء لجمجمة وعظام متداخله، تابع الحديث:

- وأما هذه، فكما تريان.. الأشعة التي أجريناها والتي تؤكد الإصابة بالمرض، لا يوجد تورم بالمخ وهذا جيد، والآن.. بعد أن استطعنا التأكد من الإصابة يجب البدء بالعلاج فورًا حتى لا تحدث مضاعفات لا سمح الله، خاصةً وأن (مالك) لم يتعد الخمس سنوات، العلاج سيستمر لمدة أربعة عشر يومًا ابتداءًا من اليوم، لذا سأبلغ الممرضة حالًا بإعطاءه اللقاح

المناسب لحالته، أما بالنسبة لدرجة حرارته فقد استقرت، ربما يحدث ارتفاعٌ طفيف فيها كعَرَضٍ جانبي للقاح.. لكن لا تقلقوا سيسير كل شيءٍ على ما يرام.

***

2 مارس 2010

آياتٌ من القرآن كانت ترتل، تصدر من مذياعٍ ما.. تملأ المكان سكينة، لا يقطعها سوى أصوات بكاءٍ لا تنتهي، وهمساتٌ متبادلة بين بعض النسوة اللاتي غُطيت رؤوسهن بقطع من السواد.. تناسبت مع السواد الذي غطى أجسادهن في الوقت ذاته، أقدامٌ تغادر لتأتي غيرها بخطى بطيئة تتجه نحوها، تمتد الأيادي تصافحها.. والبعض يحتضنها كمواساةٍ إضافية، حناجر مرددة: البقاء لله، كانت امرأةً صالحة، عظَّمَ الله أجركِ، كان الله في عونكِ.. الكثير من تلك الجمل التي لا تحتاجها أبدًا الآن، ما تحتاجه وبشدة قد رحل، وهي باستسلامها تركته يفعل ذلك وببساطة!

في مكان آخر، وقف (إبراهيم) مجاورًا لـ (ياسر)، الذي مد يده للمعزين مرددًا "شكر الله سعيكم " " ونِعمَ بالله "، ظَل الصمت مطبقًا عليهما حتى قال (ياسر):

- كم انتظرت هذا اليوم، لكن لم أتوقع أن يحدث ما حدث!

باستغرابٍ شديد تسائل (إبراهيم):

- ماذا تقصد؟!! أكنت تنتظر وفاة والدة زوجتك!!

- بالطبع لا! غدًا سيكمل (مالك) عامه الأول، كنت أتوق للاحتفال بهذه المناسبة بشكلٍ مختلف، معه ومع جدته و (زهرة)، كنت أخطط لترتيباتٍ كثيرة، حفلٌ في المنزل، أصدقائي وأصدقاء (زهرة)، الكثير من البالونات الملونة والهدايا التي جاءت خصيصًا له، لكن شاء القدر أن يكون أول احتفالٍ بمولده حزينًا كئيبًا كما ترى.

تنهد (إبراهيم)، ظَلَّ صامتًا لثوانٍ قبل أن يرد:

- أنتَ تعلم مسبقًا أن هذا سيحدث!

التفت (ياسر) متسائلًا عما يقصده صديقه، ليتابع (إبراهيم) كلامه:

- سأذكرك، لأنك على ما يبدو قد نسيت ما حدث تمامًا، وإن كان هذا ما فعلته حقًا.. فهي كارثة!

بدا على (ياسر) محاولات فاشلة بذلها عقله ليتذكر ما يقصده (إبراهيم) لكن دون جدوى، قطع محاولته تلك، صوت (إبراهيم) الذي قرر إنعاش ذاكرته:

- قبل عامين، ذهبتَ معي إلى عرافة، لم تكن زوجتك قد حَمِلت بـ (مالك)، وكنتَ في أسوأ حال، أخبرَتكَ يومها أنك سترزق بطفل في نفس اليوم الذي جئتها فيه، وحذرتك بأنه سيكون سيء الحظ، وأن سوء الحظ هذا لن يفارقه أبدًا، أعلم أنك لم تصدق يومًا مثل تلك التكهنات وأنك لم

تصدق كلامها أيضًا بدليل أنك نسيته تمامًا، ولم تنتبه حتى أنه بدأ بالتحقق فعلًا منذ أن ولد ابنك في نفس التاريخ الذي زرتها فيه كما تنبأت تمامًا، والآن جدته تموت بعد أن لازمته عدة أشهر، وقبلها كانت قد مرضت بعد ولادته مباشرة أليس كذلك؟ أترى أن كلُّ ذلك جاء محض مصادفة؟؟

كان (ياسر) منصتًا لكلام (إبراهيم) بتوجس.. بعد أن ذكَّرَه بكل شيء، مشاعر قلق بدأت بالتسلل إلى قلبه على غفلةٍ منه، فبدت ملامحه تائهه، عيناه زائغتان، محدقتان في الفراغ القابع أمامه، يظهر وجهها في ركنٌ مظلم من ذاكرته، سمراء البشرة، وجهها مغطى بطبقة سميكة من مساحيق التجميل، بيضاء الشعر، تحرك بأصابعها الرفعية المجعدة أصدافًا بحرية راقته يومًا.

- البقاء لله يا أستاذ (ياسر)..

أخرجه صوت أحد المعزين الذي ظل مادًا يده لثوانٍ غاب فيها (ياسر) عن هذا العالم، بادله المصافحة بكفٍ بارد وابتسامة اعتذار ظهرت على شفتيه، ليحرك المُعزي رأسه أن لا بأس!

***

5 إبريل 2010

مضى شهر.. بدأ وجع الفراق ينسحب من قلبها شيئًا فشيئًا، لتعود لصغيرها الذي أهملته رغمًا عنها، ولزوجها الذي لاحظت مؤخرًا شرود ذهنه بكثرة، تعامله الغريب مع (مالك)، لم يعد يلاعبه كما كان يفعل منذ وُلِد،

يتحاشاه.. يرفض مجالسته بحججٍ واهية، تسأله ما به، فيحاول التملص من أسئلتها بإجاباتٍ لا تقنعها ولا تريح قلبها أبدًا!

***

جالسًا في ذلك المقهى الذي اعتاد ارتياده مع (إبراهيم)، والذي قلَت زيارته له منذ فترة ليست بالقصيرة، يحدق في الأطفال الذين جاءوا بصحبة ذويهم، بعضهم يتراكض حوله، والبعض الآخر يجلس هادئًا في مقعده يستمتع بشرب العصير.. أو يحاول إقناع والدته بقدرته على إمساك الملعقة بنفسه ودسها مملوؤةً بالطعام في فمه الصغير، يبتسم.. ثم لا يلبث أن يعود حاجباه إلى الانعقاد مرةً أخرى، تتوافد أسئلة كثيرة إلى عقله، تزدحم فتسبب له صداعًا لا يمل إيلام خلايا دماغه، إلى متى سيظل هذا الكابوس؟ هل كان (إبراهيم) على حق؟ أكان يعتنق مبدأً خاطئًا منذ البداية؟

هل أخطأ عندما لم يصدقها؟ هل أخطأ حينما قرر نسيان تلك الليلة وما حدث فيها؟ ربما كان عليه ألا ينسى.. على الأقل سيكون ذهنه مهيئًا لكل شيء، سيكون عالمًا بالسبب.

***

(10)

28 أغسطس 2010

عيناها كانتا تراقبانه من حينٍ لآخر، تطمئن بانشغاله، وطلباته التي لا تنفذ منذ بدأ لسانه الحديث، أما هو فقد جلس محاطًا بكومة ألعابٍ متنوعة، ذهنه منهمكٌ فيها، يفككها حينًا.. ويعيد تركيبها حينًا آخر، كان قد أصبح اهتمامها الوحيد، تحاول ألا ينشغل ذهنها بغيره، صوته الطفولي يحييها كل ثانية، لا تمله أبدًا، ضحكاته تملأ قلبها سعادةً لا تنتهي، وهي لا تحتاج سوى لهذه اللحظات الجميلة خاصة تلك الفترة.

يقطع سكون روحها المؤقت باب الشقة الذي يُفتح لتجد خلفه (ياسر)، الذي دخل ساكنًا تائهًا كعادته، لم يُلقِ التحية، لم يداعب (مالك)، لم يسأل حتى عن الغداء، ألقى نظراتٍ سريعة عليها حيث جلست على الأريكة، جالسًا أسفل قدميها على الأرض (مالك) الذي كان منشغلًا باللعب والحديث مع نفسه بكلماتٍ غير مفهومة، ظلت تنظر إليه بعينينٍ مشفقتين، ليتها تفهم، على الأقل ستحاول مساعدته، ستحاول كسر حزنه وانتشاله من وحدته التي فرضها على نفسه وعليهما، فأصبح غائبًا دومًا!

ينسحب من أمامها متجهًا إلى غرفة نومهما، تقرر أن تبذل مجهودًا إضافيًا فربما استطاعت الوصول إلى شيء، تدخل فتجده يبدل ثيابه باعتيادية وملامح وجهه لم تتغير، تقترب منه، ترفع كفها لتربت على كتفه.. وتبتسم، يشعر بكفها لكنه لا يلتفت، فتقول:

- جائع؟ أحضر لك الغداء؟؟ على فكرة أنا و (مالك) لم نتناول غداء...

- شكرًا.. فقط اخرجي من فضلك وأغلقي الباب خلفك، أريد أن أنام!

قالها بجفاء فقطع حديثها وأذاب ابتسامتها، فانصاعت لطلبه وخرجت بصحبة خيبتها، مغلقةً الباب خلفها كما طلب.

***

1 سبتمبر 2010

وقف (ياسر) صامتًا.. لا يجد كلماتٍ مناسبة يستطيع بها الدفاع عن نفسه، لا مبررات، لا حجج هذه المره.

- والآن أخبرني ما الحل؟ هل أطردك؟ أم أخصم من راتبك؟ أم أعاقبك بساعات عملٍ إضافية؟ أم ماذا؟

لم يجب (ياسر) فقط اكتفى بالصمت، ليواصل مديره الحديث قائلًا بعد أن حاول أن يبدو متفهمًا:

- (ياسر) أخبرني الحقيقة، هل هناك مشاكل بينك وبين زوجتك مثلًا؟ ابنك هل هو بصحةٍ جيدة؟؟ هل هناك مشاكل مالية تعترضك؟ أخبرني ربما أستطيع مساعدتك، وإن لم أستطع فعلى الأقل سأفهم سبب ما يحدث!

- أأ أعتذر.. أعلـ...

obeikandl.com

- لا أريد اعتذارات فقد اكتفيتُ منها، أريد فقط الحقيقة، أو أن تعدني بأنك ستعود (ياسر) الذي عرفته، نشيطًا، محبًا لعمله، متقنًا لكل ما ينجزه، لا أخطاء ولا كوارث، أيهما تختار؟

رفع (ياسر) بصره ليصبح موجهًا لعيني مديره وبثباتٍ قال:

- سيعود كل شيءٍ كما كان، أعدك.

***

وقف النادل بصبر، يده اليسرى تحمل مفكرةً صغيرة، أما اليمنى فقد كانت على استعداد للكتابة بالقلم الذي تمسك به.

- سأخذ عصير تفاح .

- وأنا أحضر لي قهوتي المعتادة.

- تحت أمركما..

ابتسم النادل بعد أن دون ما طلبه كلٌ من (إبراهيم) و (ياسر)، لينصرف إلى زميله فيملي عليه الطلبان الجديدان.

- هل ستظل هكذا معي أيضًا؟؟

بادر (إبراهيم) بالكلام ليحث (ياسر) على البوح، فأجاب الأخير:

obeikandl.com

(إبراهيم) أرجوك.. لا تُمثل دور الجاهل، أنت الوحيد الذي يعلم ما بي، بل أنت تعرف مالا تعرفه زوجتي!

- بالطبع أعرف ما لا تعرفه زوجتك.. لأنني صديقك قبل أن تصبح هي زوجتك! لكن أريدك أن تتكلم ليس لأني لا أعرف ما أصابك، بل لتخرج أنت كل ما تفكر فيه، لربما وجدنا حلًا.

تنهد (ياسر) تنهيدةً عميقة وكأنه يحاول إخراج ما يثقله:

- لم يعد ذهني حاضرًا في العمل، تلقيت إنذاراتٍ كثيرة من مديري، حتى أنه حاول أن يعرف سبب تقصيري في الفترة الأخيرة، لكني لم أجد ما أقوله له، هو يحتملني لأنني أعمل في شركته منذ فترة طويلة كما تعلم.. ولكن إلى متى؟ أعتقد أنه حين يتعلق الأمر بمصالحه ومصالح شركته وعملاءه فسيفضل حينها أن يطردني من العمل على أن تخسر شركته!

قطع حديث (ياسر) وصول النادل إلى حيث جلسا، واضعًا عصير التفاح أمام (إبراهيم)، وفنجان القهوة أمام (ياسر) الذي انتظر حتى انصرف النادل، ليتابع:

- حتى (زهرة) حاولت كثيرًا معرفة سبب إهمالي المفاجئ لها وللولد، والحق يقال أنها تبذل جهدًا كبيرًا كي لا يشعر (مالك) بغيابي، تظن أنها بذلك تخفف عني عبء العناية به.. لكنها للأسف مخطئة، لا تعلم أنني اشتقت إليه كثيرًا، اشتقت لرائحته وكلمة بابا التي كانت أول ما نطق.

عاد (ياسر) إلى صمته فجأة، ولكن هذه المره ليس بسبب قدوم النادل، بل لأن عيناه لمعتا بطبقةٍ خفيفة من الدموع، فأغمضهما سريعًا، مغطيًا إياهما بكفيه.

ظل (إبراهيم) صامتًا أيضًا، مخفضًا بصره، لا يدري ما يجب أن يُقال، رغم ذلك حاول أن يشعره بوجوده الدائم إلى جانبه، فقال:

- اهدأ يا (ياسر).. اهدأ.

هنا.. انفجر (ياسر)، ليرتفع صوته قليلًا:

- أتريدني أن أهدأ؟؟ أخبرني كيف؟ كيف لي أن أكون هادئًا؟ ألا تذكر ما قالته تلك العجوز؟؟ قالت: (سوء الحظ سيكون توأمه)، أتعلم ما معنى هذا؟ سأخبرك.. معناه إن كان كلامها صحيحًا أنه مع كل يوم ميلاد لـ (مالك) ستحدث كارثة، أي أن الكوارث تتجدد كل عام! وبالطبع لستُ في حاجه إلى أن أخبرك أن كلامها قد تحقق بالفعل، أولًا تاريخ ميلاده الذي أكدت أنه سيولد فيه، وثانيًا وفاة جدته قبل يوم ميلاده الأول بيومين، وهنا بدأ سوء الحظ الذي تحدثَت عنه، إن عقلي يفكر مع كل شروق شمسٍ جديدة.. تُري ما الشيء السيء الذي سيحدث اليوم؟ ومع انقضاء كل شهر.. واقتراب يوم ميلاده، يزداد الخوف في قلبي، تُرى هل ستحدث كارثة هذا العام أيضًا؟ هل سيموت شخصٌ ما كما ماتت والدة (زهرة)؟ تُرى من سيكون هذا الشخص؟ أنا مثلا؟؟ أم (زهرة) أم أم أم... مممالك!!

ومع كلمته الأخيرة.. تساقطت دموعه كشلالاتٍ كانت تمنعها سدودٌ من الصبر انهارت بعد طول انتظار، بكى (ياسر).. كما لم يبكِ على والديه حين توفيا، بكى.. كما لم يبكِ في حياته أبدًا!

***

1 مارس 2011

الساعة تقارب الثامنة صباحًا، غادر (ياسر) للتو منزله متجهًا إلى عمله، تاركًا (زهرة) غارقة في النوم الذي لم تعد تستيقظ منه لتعد له الإفطار.. أو لتودعه قبل أن يذهب، الحقيقة أن كل شيءٍ تغير منذ وفاة والدتها، هو يدرك تمامًا أنه من سمح للفتور أن يتسلل لعلاقتهما، هو من اختار عزلته، ليست الجسدية فقط.. وإنما اختار العزلة في أفكاره أيضًا، ليس لأنه لا يثق بها أو برأيها، بل لأنها يجب ألا تعرف، ماذا ستقول عنه؟ بالطبع ستسخر من كلامه، وستلومه أشد اللوم، لماذا؟ لأنها لم تتخيل أبدًا أنه سيتنازل عن مبادئه بهذه البساطة، أو أنه سمح يومًا لكاهنةٍ كهذه بأن تتحكم في تفكيره ومجرى حياته.

كانت الكثير من الأفكار والأسئلة تحتشد في عقله، تحاول إيجاد مخرجٍ لها، أو إجاباتٍ شافية على الأقل، لكن يبدو أنه لا جدوى أبدًا.

صوت دَويّ مزمار صدر من أحد السيارات، تلاه صوت مكابحٍ دُهِست فزعًا.. أعاداه لثوانٍ إلى الواقع، لكنهما لم يكونا كافيين ليعيدا إليه تركيزه.. لأنه شعر فجأةً بجسده يرتطم بقوة في جميع جوانب السيارة، التي انقلبت

بدورها على الطريق السريع الخالي من السيارات تقريبًا، بعد أن دارت حول نفسها دوراتٍ كثيرة أفقدته اتزانه، لتنقلب على إحدى جوانبها.. ولتستقر أخيرًا على يمين الشارع.

رن هاتفها المحمول لبضع ثوانٍ كانت كافية لتوقظها من نومها، فتحت عينيها ببطء، لتقع على عقارب الساعة المثبتة على الحائط والتي أشارت إلى العاشرة إلا ربع، قطبت حاجبيها معلنةً عن ضجرها، حركت يدها نحو الهاتف الذي ما انفك يصيح برقمٍ غريب أضاء شاشته، ضغطت زر الرد ليأتيها صوت (إبراهيم) الذي لم تتعرفه للوهلةٍ الأولى، قائلًا:

- مرحبًا.. (زهرة) أنا (إبراهيم).

باستغرابٍ تسائلت:

- (إبراهيم)؟؟!! أهلًا بك.

- أعتذر أنني اتصلت بكِ، لكني اضطررتُ لذلك، فقد أخذت رقمك من هاتف (ياسر)، و...

بدهشةٍ وقلقٍ وَجَدَا طريقهما إليها قالت:

- أخذتَ رقمي من (ياسر)!! ولكن أين هو؟ ماذا حدث أجبني؟؟

- إهدئي أرجوكِ، ولا تقلقي، فأنا معه.

- معه أين؟؟

- في المستشفى.. لقد انقلبت سيارته وهو متجهٌ إلى الشركة، تم نقله إلى هنا وقاموا بالاتصال بي بعد أن وجدوا رقمي في آخر سجل مكالماته.

- أعطني العنوان سآتي فورًا.

خَطَّت (زهرة) ما أملاه (إبراهيم) عليها قبل أن تغلق الخط، وتغادر فراشها مسرعةً باتجاه غرفة (مالك) الذي كان غارقًا في النوم كالملائكة، غير آبهٍ لما يحدث حوله.

***

obeikandl.com

(11)

4 مارس 2011

فتح (ياسر) عينيه، بعد أن شعر بحركة ما في الغرفة، فاستغلت أشعة الشمس الفرصة لتتسلل إلى وجهه فجفنيه وعينيه ليعود لإغماضهما بسرعة، تحركت (زهرة) نحو الباب حاملةً كومة ملابس بدا عليها الاتساخ، حين لمحت (ياسر) يتحرك في فراشه، فسارعت بـ:

- انتبه!

عاد (ياسر) يحرك جفنيه ببطء ليفتحهما أخيرًا.. فيقع بصره عليها حيث وقفت أمام الباب، فأردفت مفسرة:

- أصرَّ (مالك) أن ينام بجوارك ليلة أمس.

قالتها ثم ابتسمت، قبل أن تنصرف مغادرةً الغرفة لتتابع ما بدأت بعمله، أما هو فقد التفت إلى يساره ليجد جسدًا صغيرًا تكوم تحت الأغطية، فلم يظهر منه شيءٌ سوى شعره الأسود الكثيف الذي ظلّ عاريًا متناثرًا على الوسادة بفوضوية، رمقه (ياسر) بنظراتٍ خاوية.. لم يستطع حتى الابتسام بعدها، أشاح بوجهه ليسكن رأسه الوسادة مرة أخرى باحثًا عن المزيد من النوم.

***

رنّ جرس الباب، ليركض (مالك) مسرعًا يسبق أمه حتى وصل، يرفع جسمه قليلًا فيصبح واقفًا على أطراف أصابعه مادًا يده الصغيره قابضًا بها على مقبض الباب، يحركه مرارًا لكنه لا يُفتح، تأتي (زهرة) تلحقه حتى تصل إلى حيث وقف، تحرك المفتاح الذي استقر في مكانه فيفتح الباب أخيرًا، يتقافز (مالك) بفرح:

- عمو (إبراهيم)..

تبتسم (زهرة) لحركات صغيرها المثيرة للضحك، لترحب بعدها بصديق زوجها وتدعوه للدخول:

- أهلًا (إبراهيم) تفضل.

- أهلًا بكِ.

يدخل (إبراهيم)، مداعبًا شعر (مالك) بيده، ثم يسأله:

- كيف حال حبيبي؟

- الحمد لله، هيا لنلعب.

- حسنًا.. لكن هل تسمح لي بأن أجلس مع والدك قليلًا؟

يحرك (مالك) رأسه علامة الموافقة، ثم يمسك بيده مصطحبًا إياه إلى حيث جلس (ياسر) على الأريكة، رافعًا إحدى ساقيه التي غُطَّت بجبيرةٍ بيضاء، على طاولةٍ وضعت أمامه، يقترب (إبراهيم) مبتسمًا:

- كيف حالك اليوم؟

- كما تَرى.. الحمد لله.

قالها.. ثم صاح فجأة في وجه (مالك) الذي لم يدري أيُّ جُرمٍ ارتكب لينهره والده بهذه القسوة:

- (مالك) كَم مَرةً علي أن أقول.. لا تجلس مع الكبار أبدًا حين يتحدثون، اذهب إلى الدااااخل حالاً!

ركض الصغير مسرعًا إلى غرفته، بينما عيناه تذرفان الدموع بغزارة، دخل غرفته.. تكوم على فراشه وبدأ بالبكاء!

في الخارج.. كان (إبراهيم) مستغربًا للطريقة التي عامل بها (ياسر) ابنه، هو يعلم جيدًا أن حالته النفسيه سيئة منذ فترة ليست بقصيرة، وأن الحادث الذي أصابه مؤخرًا لابد أن له تأثيرًا كبيرًا أيضًا، لكن هذا الصغير ما ذنبه!

- (ياسر) عليك أن تتمالك أعصابك قليلًا!

التفت (ياسر) نحو (إبراهيم) الذي لم تزل علامات الاستغراب مرتسمةً على وجهه، وقال:

- أترى الجروح التي في وجهي؟ أترى ساقي التي كُسرت؟ أترى عيناي كيف أصبحتا من قلة النوم؟ أترى نحولي الذي ازداد مؤخرًا؟ لا بأس.. ربما لا ترى ذلك كله، لكن أخبرني.. ألا ترى المصائب التي تهبط على رأسي منذ ولد؟ ألا

ترى حالتي المادية كيف أصبحت؟ كيف أصبحتُ في عملي؟ مع زوجتي؟ إنه السبب! هذا الشيطان هو السبب بكل تأكيد!!!

***

28 مايو 2011

انتهت (زهرة) من تبديل ملابسها، غادرت الغرفة متجهه إلى غرفة (مالك) الذي جلس على الأرض وقد احتضن حقيبته الصغيرة بذراعه الأصغر، ومال برأسه عليها، اقتربت منه برفق، قبل أن تمد يدها لترفع ذراعيه محاولةً عدم إيقاظه من غفوته، لكنه شعر بها، ففتح عينيه الواسعتين وقد ملأهما النعاس ليرى والدته تميل عليه وتقول:

- هيا يا حبيبي..

لكنَّ (مالك) قطب حاجبيه وبدأ بإصدار صوت الأنين المعتاد.. لتضحك (زهرة) قائلة:

- لا تحاول فلن تقنعني..

ثم بادرت بحمله ليسكن رأسه كتفها مستسلمًا لمصيره، تحركت (زهرة) مغادرةً غرفة (مالك)، لتجد (ياسر) مازال جالسًا على حاله وبين يديه الجريدة ذاتها يقرأها بتمعن، فقالت وهي تستعد لمغادرة المنزل:

- سأوصل (مالك) إلى الحضانة وسأعود إليك فورًا.. لن أتأخر.

رفع (ياسر) بصره إلى حيث وقفت (زهرة)، ليحرك رأسه بـ:

- حسنًا..

***

مستمرٌ في التحديق عبر النافذة المفتوحة بجانبه، يراقب السائرين.. والأشجار التي وقفت صامدة على طول الطريق، لم يحاول فتح مجالٍ للحديث معها، ربما ليتحاشى عينيها اللتان سرعان ما ستقعا على عينيه فينهار، وربما باح لها بكل شيء! لكنه لن يفعل، سيحُل كلَّ شيءٍ بمفرده، وسيأتي اليوم الذي سيفهم فيه أخيرًا، فيرتاح قلبه، ويهدأ باله، وربما حكى لها وقتها.

أما هي فلم يعد ما شغل تفكيره وبَدَّلَهُ يهمها في شيء، سئِمَت؟ ربما! لا أحد يستطيع إنكار جهودها المبذولة هباءًا في مساعدته، ولا جهودها الأكبر في العناية بطفلٍ فقد أباه بينما الأخير مازال على قيد الحياة! طفلٌ لا يحادثه والده منذ سنتين، يتجاهله دائمًا وكأنما لا وجود له، وإن مَنَّ عليه بكلماتٍ.. فتجدها توبيخًا لا أكثر ،طفلٌ لا يعرف عنه والده شيءٌ، سوى أنه روحٌ تشاركه محل إقامته!

وصلت سيارة الأجرة التي استقلاها (زهرة) و (ياسر) إلى المستشفى حيث يقصدان، ترجلت (زهرة) متجهةً إلى باب السيارة الآخر الذي حاول (ياسر) الترجل منه.. لتصل (زهرة) فتساعده، ينقد (ياسر) السائق أجرته، فيأخذها الأخير على مضض، بعد أن كاد يطلب أكثر، لولا أنهما تحركا نحو

المدخل سريعًا، ليجد السائق لا يقف بجوار نافذته سوى الفراغ، فيدير محرك السيارة، مغادرًا المكان.

تدخل (زهرة) ممسكةً بذراع (ياسر) الذي كان يتكيء عليها، يصلا حيث الممرضة، لتبتسم الأخيرة فور رؤيتهما قائلة:

- أهلًا بكما.. أعتقد أن هذه هي المرة الأخيرة أليس كذلك؟

تبادر (زهرة) بالإجابة:

- أجل سيزيل الطبيب الجبيرة اليوم.

- جيد.. استريحا، وسأخبره حالًا بوصولكما.

***

في طريق العودة، لم يتغير الوضع كثيرًا، (ياسر) صامت كعادته، و (زهرة) لا يهدأ عقلها عن التفكير، ثم فجأة قررت أن تشاركه قرارها الذي اتخذته، فقالت:

- (ياسر).. أود أن أخبرك شيئًا

التفت (ياسر) بفتور إلى حيث جلست بجانبه، قائلًا:

- ماذا؟

- سأعود إلى العمل!

obeikandl.com

- أيُّ عمل؟؟

- الدار.. دار الأيتام التي كنت أعمل بها قبل الزواج، لقد مللت المنزل وأعباءه، كما أنَّ (مالك) أصبـ...

- افعلي ما تشائين!!

هكذا أسكتها وأنهى ما بدأت في شرحه، لم تملك شيئًا سوى أن لاذت بالصمت، على الأقل أخبرته.. فهي في جميع الأحوال كانت ستنفذ ما عزمت على فعله سواءًا وافق أم لم يوافق!

***

obeikandl.com

(12)

1 يونيو 2011

حين عاد (ياسر) إلى عمله، كانت ساقه قد شفيت من الإصابة، وكان قد اتخذ قرارًا حاسمًا، يجب أن يصل إليها ليفهم، سيبحث عنها في كلِّ مكان، ولن يسمح لابنه بأن يتسبب في كوارث أخرى، لكن زيارته الأولى والأخيرة لها كانت منذ ثلاث سنوات تقريبًا، إذن هو في حاجةٍ إلى طرف خيط يقوده إليها.. ثم إلى الحقيقة!

عندما فرغت (زهرة) من سرد ما حدث لها خلال الأعوام الماضية منذ تركها للعمل وحتى هذه اللحظة، كانت (عبير) قد فقدت قدرتها على الاستيعاب جزئيًا، لدرجة أنها لم تلحظ أن (زهرة) قد أنهت حديثها، لكن (زهرة) لوحت بكفها أمام وجه صديقتها قائلة:

- هييه.. أكنت أحادث نفسي؟!!

- معك.. معك.

- هذا واضح!

- (زهرة) حبيبتي، أخشى أن أخبركِ بذلك، لكن يجب أن تعرفي..

تحولت نظرات (زهرة) إلى نظرات استفهام فسألت بتوجس:

- أعرف ماذا؟

- اسمعي.. جميعهم يفعل ذلك، بمجرد أن يشعروا بأنه وقع على عاتقهم مسؤولية بيت وزوجة وأطفال، يبحثون عن امرأةٍ أخرى، تعيد إليهم حريتهم، يتسكعون معها، وتمنحهم كل شيء، إنهم سفلة ياعزيزتي، سفلة!!

ارتسمت علامات البلاهة على وجهه (زهرة) إثر ما سمعته من صديقتها، ثم ما لبثت أن انفجرت في موجة ضحكٍ هستيري.

- أتضحكين؟ إنها الحقيقة، أنت سردتِ عليَّ ما حدث وأنا أقدم لكِ التفسير، فما المضحك إذن!

حاولت (زهرة) استنشاق بعض الأكسجين لتتمالك نفسها وتتوقف عن الضحك، لكنها لم تستطع، ضحكت وضحكت حتى دمعت عيناها، وكأن قلبها كان في أمَسِ الحاجة إلى تلك الضحكات المسروقة!

***

وقف (ياسر) رافعًا بصره إلى نافذة معينة استقرت في الدور الثالث من المبنى الماثل أمامه، بينما وقف (إبراهيم) خلفه صامتًا ينتظر رفيقه أن يعبر باب المبنى، لكنه لم يفعل، فبادر بالحديث:

- (ياسر) إلامَ تنظر؟ هل غيرت رأيك!

- بالطبع لا، أيعقل بعد ما بذلناه من جهد في الوصول إلى هنا أقرر التراجع!!

- إذن هيا بنا..

تحرك (إبراهيم) دافعًا صديقه إلى المدخل الذي كان في استقبالهما، ولجا.. بضع خطواتٍ حتى وصلا إلى الدَرَج المؤدي إلى الأدوار العليا، صعدا حتى وصلا إلى الدور الثالث، حينها توقف (ياسر) عن الصعود وتوقفت قدماه على الدرجة الأولى، بينما تقدم (إبراهيم) ليتخطاه وليقف أمام بابٍ عبرا منه يومًا ظانّيَنَ أنها ستكون المرة الأخيرة، لكنها لم تكن! تقدم (ياسر) ليقف خلف (إبراهيم) وقلبه تزداد نبضاته، رفع (إبراهيم) يده اليمنى ضاربًا الباب.

الأنفاس تتسارع، والنظرات تتبادلها عيناهما، لم ينطقا بكلمة.. فكلاهما لا يريد أن ينطق حتى بما يخالجه من مخاوف فلربما صدقت إحداها، وكأن البوح يجعل من الأفكار حقيقة تتجسد تلقائيًا فور النطق بها!

ودعت (زهرة) صديقتها بعدما أوقفت سيارة أجرة استقلتها متجهة إلى منزلها، كانت تتظاهر حتى اللحظة الأخيرة بعدم التصديق، وكانت تردد بعد كل جملة أن هذا مستحيل.. إنه مجرد هراء، لكن هل كان كذلك فعلا!

تتردد كلمات (عبير) في ذاكرتها، عن امرأةٍ أخرى.. وحياةٍ أخرى، أيعقل يا (ياسر)! ماذا لو كانت (عبير) على حق، ماذا إن كان كلامها حدث فعلًا، الخيانة.. الكلمة الوحيدة التي لم ترد في ذهنها لحظة منذ قابلت (ياسر)، لم تتخيل يومًا أن زوجها سيملُ منها سريعًا بعد إنجابها للطفل الأول، ليركض خلف أخرى، تعطيه وقتها كله، وقلبها كله، وليس نصف وقت ونصف قلب!

تزاحمت التفسيرات والتبريرات والقصص في خيالها حتى أيقظها سائق الأجرة حين قال:

- سيدتي.. وصلنا.

اعتذرت على شرودها، وغادرت السيارة سريعًا بعدما نقدته أجرته، فأخذها شاكرًا، مغادرًا إلى رزقٍ جديد.

***

فُتح الباب أخيرًا ليظهر خلفه رجلٌ عجوز، بالكاد يقف على قدميه مستندًا إلى عصاه الخشبية، وقف مستفهمًا لثوانٍ قبل أن يحول استفامهه إلى سؤال فقال:

- أأستطيع خدمتكم؟

ارتسمت علامات الانزعاج على ملامح (ياسر) والذي بدا في تقطيبه لجبينه وكفه المنقبضة توترًا وغضبًا، أما (إبراهيم) فقد حاول الابتسام ليبادر بسؤال العجوز:

- مرحبا سيدي.. نعتذر على إزعاجك، في الحقيقة نحن نبحث عن شخص ما كان يسكن هذه الشقة منذ أربع سنوات أو بالأحرى كان يعمل بها.

- شخص؟ ما اسمه؟؟

- قبل أن أخبرك باسمه أتسمح لنا بالدخول؟ فالحديث قد يطول بعض الشيء.

- بالطبع تفضلا..

تحرك العجوز بصعوبة ليفسح لهما المكان للدخول، ما إن خطت قدماهما باب المنزل حتى دارت عيناهما في الأرجاء، الحوائط.. الأثاث.. الرائحة، كل شيءٍ مختلف، لا يبدو أبدًا كما رآياه قبل أربع سنوات.

هتف العجوز بلباقة وهو يتخذ مقعدًا في منتصف الصالة:

- تفضلا بالجلوس..

تحركا ببطء حتى استقرا على أريكةٍ جمعتهما معًا، وقتها كان (ياسر) قد اتخذ قراره، سيسأل بنفسه، وسيتمالك أعصابه ولن ينفعل، ألقى نظراتٍ مفهومة لـ (إبراهيم) الذي ترك له المجال ليتحدث، فقال:

- سيدي.. قبل ثلاث سنوات من الآن، كانت المرة الأولى التي نأتي فيها إلى هذه الشقة، هنا كانت تعمل عرافة، للاسف لا نعرف ما اسمها، وكان يعمل معها شاب في العشرينيات تقريبًا، أتذكر ملامحهما جيدًا، وأتذكر ما كانوا يرتدونه من ثياب يومهًا، السؤال الآن.. أين ذهبت هذه العرافة؟؟

حرك العجوز عينيه بين وجههما بهدوء قبل أن يرد:

- اسمع يا بُني.. أنا اسكن هنا منذ ثلاث سنوات بالضبط، وحين جئت لهذه الشقة منذ أول يوم لم أقابل أيَ عرافة، حتى إن هذه الشقة ذاتها لم

تكن مسكونة أو مؤجرة، ولم يكن يعمل بها أحد، وقام ولدي باستئجارها من مالكها لثلاث سنوات انتهت منذ أسبوعين، وتجددت الفترة لثلاث سنواتٍ قادمة، أما ما ذكرته فليس لديَّ أي معلومات عنه!

صمتا.. وبدت علامات الدهشة والاستغراب تغزو ملامحهما بقسوة، كيف ذلك!! فجأة مَرَّ خاطرٌ ببالِ (إبراهيم) فسأله:

- حسنًا سيدي.. ما هو التاريخ الذي استأجرت فيه هذه الشقة بالضبط.. تاريخ كتابة العقد بينك وبين المالك؟

- لا أتذكر، فذاكرتي تخونني دائمًا، لكن يمكنني أن أبحث لكم عن عقد الإيجار.. دقيقة وسأعود.

انسحب العجوز متكئًا على عصاه، إلى أن اختفى في إحدى الغرف، بينما بقيَ كلًا من (إبراهيم) و(ياسر) في أماكنهما وقد صار التوتر جليسهما الثالث.

غاب العجوز لعشر دقائق كاملة، قبل أن يظهر أخيرًا وفي يده ورقة مازالت محتفظة بلونها الأبيض وشكلها المقبول، مادًا يده إلى (ياسر) الذي التقطت يده اليسرى الورقة بلهفة، ثم بدأت عيناه تجوبان بين الأسطر المكتوبة حتى وقعت عيناه على إجابة سؤاله.. الثالث من مارس!!!

***

(13)

5 يوليو 2011

كان (مالك) جالسًا بجوار أمه في سيارة الأجرة التي استقلاها إلى البيت، وقد بدأ في الثرثرة والحديث عن أحداث يومه في الحضانة، يحكي ويحكي و (زهرة) تستمع بصبر والابتسامة لا تفارق وجهها مع تعبيرات التأثر والانبهار التي ترسمها من حين لآخر كلما ذكر ولدها حدثًا يظنه مهمًا، حتى قال فجأة:

- والمعلم بعد أن أنهى شرح الدرس سأل كلُ واحدٍ منا ما وظيفة أباه، وحينما جاء دوري وقفت وقلت: بابا يعمل مع الأشرار!!!، لكنَّ الجميع ضحك بما فيهم معلمي، لا أعلم لماذا، فقد قلتُ الحقيقة!

صُدمت (زهرة) مما سمعت، لكنَّها تمالكت نفسها فسألته:

- حبيبي.. من أين جئت بهذا الكلام؟

رد الصغير ببراءة مشيرًا بإصبعه الصغير إلى رأسه:

- من هنا!

- كيف من هنا؟ من أخبرك أن بابا يعمل مع الأشرار!

- لا أحد، أنا أعرف، هو دائمًا يوبخني ويصرخ بوجهي، ولا يبقى معنا بالبيت، دائمًا يتنزه مع عمو (إبراهيم) ولا يتنزه معي، هو لا يحبني ولا يحبك، والأشرار لا يحبون أحدًا!

كانت على وشك البكاء، فلأول مرة تسمع مثل هذا الكلام من صغيرها، لم تكن تعلم أن كل هذه المشاعر تنمو كل يوم في قلبه الصغير، لم تكن تتخيل أنه يفقه تصرفات والده، فهو لم يكمل الثلاث سنوات حتى، لم تجد ما ترد به لأن كل ما ستقوله سيكون كذبًا، (ياسر) لا يحبه فعلًا، (ياسر) أصبح شريرًا!!

كان (ياسر) يقف بعيدًا عن المبنى ذاته، في مكان يسمح له برؤية من يدخل ويخرج، فجأة اهتز هاتفه المحمول في جيبه مصدرًا نغمة رنين مميزة، مَدَّ يده وعيناه لا تزالا مركزتين على المدخل، ضغط زر الرد دون أن يرى من المتصل، جاءه صوت (إبراهيم) على الطرف الآخر يقول:

- مرحبًا (ياسر).. كيف حالك اليوم؟

- بخير بخير..

- هل أنهيت عملك؟ سأمُرُّ عليك بالسيارة.

- لا داعي، لقد انصرفت من الشركة مبكرًا اليوم، لديَّ عملٌ أقوم به قبل أن أعود إلى المنزل، لا تشغل بالك، هيا مع السلامة!

- لحظة.. لماذا أنت مستعجل لإغلاق الخط؟ أخبرني أين أنت؟ وأيُ عملٌ هذا؟؟

- فيما بعد يا (إبراهيم)، مع السلامة.

لم يمهله لحظة ليرد بها السلام فبادر بإنهاء المكالمة واضعًا الهاتف في جيبه مرةً أخرى.

مرت ساعتان على هذا الحال، لم يشعر بألم في مفاصله أو ظهره، لم يلتفت لأشعة الشمس التي أحرقت وجهه فتصبب عرقًا، لم يُعِر أيًا من هذه التفاهات اهتمامًا، بقيَّ واقفًا في مكانه ينتظر شيئًا معينًا لم يحدث بعد، ثوانٍ حتى اقترب منه شخصٌ ما لم يتبينه في البداية حتى وصل لنقطة وقوفه.

- ماذا تفعل هنا!

- مررت عليك في المنزل فأخبرتني (زهرة) بأنك لم تعد بعد، ماذا تفعل أنت هنا؟

- لا شأن لك!

- لا شأن لي!! لِمَ تحادثني بهذه الطريقة؟ ثم أين هو العمل الذي أخبرتني أنك تقوم به، هل التجسس والوقوف تحت الشمس لساعتين متواصلتين هو العمل العظيم الذي تقصده!!

- (إبراهيم) أرجوك لا تشتت تركيزي، اذهب من هنا، و سأخبرك لاحقًا.

لم يكد يكمل (ياسر) جملته، حتى سحبه (إبراهيم) من يده إلى السيارة التي أوقفها بالقرب من مكان وقوفهم، أدخله السيارة وأغلق الباب بقوة متجهًا إلى مقعد القيادة، بينما (ياسر) يصيح بالداخل بكلامٍ لم يتبين له ولم

يفهم منه كلمة سوى نبرة الاعتراض التي غلفت كلماته الحادة، أدار محرك السيارة منطلقًا بسرعة، و (ياسر) مستمرٌ في صياحه.

***

- أترى أن ما كنت تفعله سيجدي؟ هل تعتقد أنك ستصل لشيءٍ بالتجسس والوقوف في الشوارع؟؟

لم يرد (ياسر)، ظل ينظر إلى عينيه فقط دون كلام، كان (إبراهيم) قد أوقف السيارة هذه المرة تحت المبنى الذي يضم شقة صديقه، ظل يحاول أن يفهم منه بهدوء، لكنه بقي صامتًا لا يرد، ينظر إلى عينيه من حين لآخر ملتزمًا الصمت، وفجأة انهار في بكاءٍ مرير!

- (ياسر) إهدأ.. أرجوك البكاء لن يحل شيئًا.

لكنه يستمر في البكاء، شهقاته تتابع، لم ينطق بكلمة فقط البكاء أخرج كل ما يريد قوله وما لا يريد، مرت نصفُ ساعة حتى استطاع (إبراهيم) تهدئته، جفف (ياسر) دموعه، ثم غادر السيارة دون كلمة، تاركًا الحيرة تأكل صديقه بنهم.

***

10 مارس 2012

أمسكت (زهرة) بكف صغيرها بينما كانت الممرضة تعيد غرز الحقنة في كفه الأخرى، حرك (مالك) رأسه نحو أمه وقال:

- أين بابا؟

- سينهي عمله ويأتي لزيارتك، لا تقلق.

- أخبريه قبل أن يأتي أن يحضر لي بعض الشوكولاتة.

- لا يمكنك تناول الشوكولاتة الآن يا حبيبي، لم تتماثل للشفاء بعد.

ارتسمت علامات الحزن على وجه (مالك) الذي كان قد مَلَّ من مكوثه في المستشفى وبدأ بالتذمر من كل شيء وإن كان بسيطًا، لكن (زهرة) قالت:

- اسمع.. أتعلم متى سنغادر المستشفى؟

ثم رفعت كفه وامسكت بأصابعه وبدأت العد:

- واحد.. اثنان.. ثلاثة.. أربعة.. خمسة

ثم تناولت كفه الأخرى وأكملت:

- ستة.. سبعة.. ثمااانية، بعد ثمانية أيام سنكون في المنزل إن شاء الله، وحتى يأتي ذلك اليوم يجب أن نطبق تعليمات الطبيب حتى نعود أصحاء ونأكل وقتها الكثير والكثير من الشوكولاتة أليس كذلك؟

حرك (مالك) رأسه موافقًا وارتسمت على شفتيه ابتسامة ترقب لذلك اليوم الذي سيشفى فيه.

***

(14)

24 سبتمبر 2011

عقارب الساعة تشير إلى منتصف الليل تمامًا، يقف (ياسر) في شرفة منزله، عيناه تراقبان السيارات العابرة في الشوارع، ضجة في كل مكان وفي عقله ضجة أكبر من أي مكان، هكذا شعر، (زهرة) و (مالك) خلدا للنوم منذ ساعات، أما هو فلم يعد يستطيع أن يهنأ بساعتين متواصلتين على الأقل، تزوره الكوابيس والأحلام دائمًا، حتى أنه لم يعد يتخيل أن ينام دون كابوسٍ واحدٍ على الأقل، عبر في ذاكرته الكثير مما حدث في الشهرين الأخيرين، مراقبته المستمرة لذلك العجوز الذي زاره برفقة (إبراهيم)، تسجيله لكل تفصيلة عرفها عنه، يعيش وحيدًا بعد أن توفيت زوجته منذ أكثر من عشر سنوات، انتقل مع ابنه إلى هذه الشقة التي استأجراها منذ ثلاث سنوات تقريبًا، ولده يعمل في إحدى شركات البترول لكنَّه حصل مؤخرًا على عقد عمل في إحدى الدول فسافر.. تاركًا والده يرعى نفسه، يزوره كل نصف سنة تقريبًا ليطمئن على أحواله، كل هذه المعلومات وصل إليها من جارته التي تسكن نفس الطابق، زارها يومًا بحجة أنه باحث يجمع معلومات عن كبار السن في هذه المنطقة، أما هي فلم تكن بحاجه إلى سببٍ لتبوح له بكل ما تعرفه كالكثير من ربات البيوت، بل بالإضافة إلى ذلك أخذت تثرثر عن والدِاها اللذان توفيا منذ من زمن!، تساقط الرماد على إصبعه فانتفض بعد أن أحرقته حرارة سيجارته المشتعلة بين إصبعيه، زفر

بقوة وكأنه يحاول إخراج همه الذي ضاق به صدره، تردد في ذهنه محاولاته الفاشلة في السؤال عن تلك العَرَّافَة في عدة أماكن، بدءًا من الشقق المجاورة لشقة العجوز، مرورًا بالمباني الأخرى في نفس المنطقة، وصولًا إلى أصحاب المحال المنتشرة هناك، الجميع ردد على مسامعه نفس الجملة.. لم نَرَ عرافة تعمل هنا أبدًا، هل كانت شبحًا!! هل كان يحلم يومها؟ أيعقل أن ما حدث ليلتها كان مجرد تهيؤات!! لكنه لم يكن وحده، لولا يقينه بأن (إبراهيم) كان يرافقه وقتها لتأكد أنه كان يهذي، وأن كل ما حدث كان مجرد هلاوس لا أكثر، لكنه يجب أن يصل إلى الحقيقة قريبًا.. فالوقت يمر، وهو لا يريد حتى توقع المصيبة القادمة حتمًا، لا يريد أن يتخيل ماذا ستكون، لأن كل ذلك يجب أن يتوقف عند هذا الحد، رمى السيجارة التي انطفئت بعد أن وصلت نهايتها.. في الشارع، أ واستدار ليغادر الشرفة متجهًا إلى سريره، علَّه يستطيع اقتناص بعض النوم.

***

30 نوفمبر 2011

حين نصح (إبراهيم) (ياسر) بالتوقف عن البحث لأنه لا جدوى من ذلك، وبأن عليه أن ينسى كل شيء ليعود لحياته الطبيعية من جديد، صاح الأخير في وجهه بألم:

- وماذا تعرف أنت عن الأبوة! حين ترزق بطفل بعد طول انتظار وتظن وقتها أنك رزقت السعادة أخيرًا، ثم تكتشف فجأة أن هذا الطفل هو وكل من حوله في خطر، وأنه جالب للتعاسة لا للفرح، والمصيبة أن هناك

شخص واحد في هذا العالم كان يعرف كل هذا وقد حذرك، لكنك لم تستمع، والآن أنت وحدك، لا أحد يعلم سرك، تحمل الوجع وحدك، ولا شيء بيدك سوى انتظار فاجعة بعد أخرى، أخبرني كيف سيكون شعورك وقتها؟

حينها لم يعرف (إبراهيم) بماذا يرد، فكل الحق معه، فكيف له أن يعرف شعوره وهو لم يختبر الأبوة يومًا!

***

حين تصحو يومًا لتجد نفسك في نفقٍ مظلمٍ لا نهاية له، يصيبك الجنون.. كيف أنه لا يوجد مخرج؟ كيف أنه لا يوجد شعاع شمس يستطيع أن ينفذ إلى سجنك فيرشدك إلى الطريق الصحيح، هكذا كان حال (ياسر) لعدة أشهر متواصلة، في دوامة لا يبدو أن لها نهاية، كل شيءٍ يتجه نحو نفس النقطة..الهاوية!، حياته.. أسرته.. عمله.. قدرته على التحمل.. حالته النفسية السيئة جدًا، جميع المؤشرات تشير إلى نهاية مأساوية بشعة!

ذات صباح، حين استدعاه مديره المباشر في العمل إلى مكتبه، حين أبلغه بالقرار المتخذ في حقه، لم يستطع أن يرد، فقد اعتاد ذلك، وكأنه كان ينتظر الخبر منذ زمن، حاله يتجه من سيءٍ إلى أسوأ، فقدانه لعمله كان آخر المصائب التي طرقت بابه.

***

بعد أن طُرِدَ (ياسر) من عمله، تفرغ تمامًا لعملية بحثه عن العرافة المجهولة، كان (إبراهيم) يرافقه أحيانًا أثناء مقابلاته لبعض الأشخاص المهتمين بمجال التنجيم، ولا مانع أيضًا من مقابلة بعض العرافيين، الذين رفضوا تفسير ما قالته العرافة وما حدث من وقتها، بحجة أن في هذا الوسط لا أحد يتدخل في عمل الآخر!

أما (زهرة) فقد كانت أول من يلاحظون التغييرات الجذرية التي أصابت شخصية زوجها، وزاد على ذلك تركه للعمل، لم تفهم لماذا حدث ذلك، فزوجها كان من أكثر الملتزمين في عملهم، حين تزوجته كان ناجحًا في كل شيء، شخصيته رائعة، لا تفارق الضحكات وجهه، أما الآن فلم تعد تعرف من هذا الشخص البائس الذي يشاركها سريرها وطعامها وهواءها الذي تتنفسه، حتى هو لم يعد يعرف نفسه.

***

1 مارس 2012

كان من أصعب الأيام عليه وأمرّها في حلقه، منذ أن أفزعته (زهرة) بالخبر وحتى قرار الطبيب بإبقاؤه في المستشفى، شعر (ياسر) وقتها أنه ينهار، سيفقد ولده الذي تمناه طويلًا، لكن متى تأججت أبوته بداخله؟ ألم يكن يكرهه؟ ألم يكن يعامله أسوأ معاملة؟، إنه لا يذكر حتى آخر مرة احتضنه فيها وداعب خصلاته الفاحمة، آخر مرة اصطحبه إلى الحضانة، بل إنه لا يعرف اسمها حتى أو أين تقع، فـ (زهرة) هي من أصبحت تتولَّى كل شيء، أما هو فقد تخلى عنهما، تركهما يعيشان حياةً منفصلة، دون أن

يمنحهما أبسط حقوقهما.. وهو أن يعرفا الحقيقة، تفرغ لمخاوفه، كم هو أناني، وكم هو بحاجه إلى البكاء، المتنفس الوحيد الذي أصبح يلجأ إليه مؤخرًا بعيدًا عن همه وألمه.

***

18 مارس 2012

انتهى الطبيب من فحص (مالك) في حين وقف (ياسر) و (زهرة) بعيدًا يرقبون المشهد، اقترب الطبيب منهما وبدأ في الحديث مبتسمًا:

- ابنكما استجاب للعلاج بسرعة، جميع فحوصاته وتحاليله حتى الآن جيدة جدًا

تنهدت (زهرة) في حين ارتسمت علامات الارتياح على وجه (ياسر) بعد أن تبادل نظرات فرح معها، لكنه سرعان ما مد يده مصافحًا الطبيب قائلًا:

- نحن نشكرك جدًا على مجهودك الذي بذلته معنا.

- لا داعي للشكر أستاذ (ياسر)، هذا عملي، حمدًا لله على سلامته.

- ولكن متى يمكنه المغادرة؟

- اليوم إن أردتم ذلك، فقد تعافى.

- شكرًا جزيلًا لك.

الشكر لله.. أستأذنكما.

وتخطاهما متجهًا إلى مرضى آخرين مازالوا ينتظرون الشفاء، توجهت (زهرة) إلى السرير الذي ربض في منتصف الغرفة، وقد جلس فوقه (مالك)، عيناه مشرقتان ووجهه ينبض بالحياة، أما خصلات شعره فقد تناثرت بعشوائية متسللةً إلى جبهته الصغيرة، حملت (زهرة) صغيرها واحتضنته بقوة، وقبلّته كثيرًا جدًا حتى صاح فيها:

- ماما.. لقد مات خَدِّي!

انفجرت (زهرة) ضاحكة وتسلل من بين ضحكاتها اعتذارها عن تقبيله بهذه الطريقة التي أماتت خده!

- إذن نغادر الآن؟

جاءها صوت (ياسر) الذي كان واقفًا خلفها، فاستدارت لتواجهه وقالت:

- بالطبع، أمهلني عشر دقائق فقط أحضر حاجياته ونذهب.

- حسنًا.. وأنا سأذهب لأنهي إجراءات خروجه ريثما تنهين عملك.

واستدار مغادرًا الغرفة، لكنه توقف قبل أن تمتد يده إلى مقبض الباب بعد أن ناداه (مالك) قائلًا:

- بابا!

أدار وجهه ناحية (مالك) الذي كان ما يزال في حضن والدته، فقال الأخير:

- هل تحبني كما تحبني ماما؟

صمت (ياسر) قليلًا مشدوهًا من السؤال الغريب الذي تفوه به صغيره للتو، فكر قليلًا ثم سرعان ما وجد جسده يقترب من (زهرة) وذراعاه ترتفعان لتختطف (مالك) من ذراعي والدته، رفعه إلى مستوى وجهه وقال:

- أنت جزءٌ مني، هل يستطيع أحد أن يكره جزءًا منه؟ خاصة عندما يكون بهذا الجمال؟!

ارتسمت علامات البلاهة على وجه (مالك)، فضحك (ياسر) لأول مرة منذ زمن، خرجت الضحكات من أعماق قلبه، وسرعان ما احتضنه بشدة، حتى تأوه الصغير، فأفلته (ياسر) قائلًا:

- أحبك أكثر من الشوكولاتة!

ضحك (مالك) أخيرًا بعد أن حصل على إجابة سؤاله، لكنه توقف فجأة ليقول:

- تركت الأشرار أخيرًا!

باستغراب رد (ياسر):

- أيُّ أشرار؟

هنا ضحكت (زهرة) التي كانت تراقب ما يحدث صامتة وقالت:

- سأخبرك لاحقًا بهذه القصة.

***

obeikandl.com

(15)

1 إبريل 2012

عاد الجميع إلى ما كان يشغله، (زهرة) عادت إلى عملها، (مالك) عاد إلى حضانته وأصدقاءه، أما (ياسر) فصحيح أنه عاد لبحثه عن العرافة، لكنّه بدأ في البحث عن شيء آخر، كان قد اتخذ قرار البحث عنه بعد أن تعافى (مالك)، وهو البحث عن عمل.

كان (مالك) قد استعاد صحته أخيرًا، فأصبح يمارس حياته بشكلٍ طبيعيّ، وكان سعيدًا إلى حدٍ ما، فـ(ياسر) تحسن في معاملته له، صحيح أنه لم يكف عن انشغاله الدائم، إلا أنه على الأقل لم يعد يصرخ في وجهه كلما رآه، بل أصبح أكثر هدوءًا في التعامل معه والحديث إليه، وكذلك (زهرة) علاقته بها بدأت في التحسن بشكلٍ ملحوظ أسعد قلبها.

***

حين هاتفه (إبراهيم) بتلك النبرة وتلك الطريقة الغريبة طالبًا مقابلته، فكر أنه ربما استطاع صديقه أن يصل أخيرًا إلى مكان العرافة، أو إلى أي شيءٍ يخصها، لذلك وجد نفسه يبدل ملابسه بسرعة مغادرًا منزله بتعجل.

حين وصل إلى المكان الذي اعتادا اللقاء فيه، كان (إبراهيم) ينتظره، وما إن رآه من بعيد حتى لَوَّحَ له بيده ليدله على مكان جلوسه، وسرعان ما توجه (ياسر) مباشرةً إلى حيث جلس.

- مرحبًا.. هل تأخرت؟

- لا.

- ما بك؟ هل أنت بخير؟

- الحمدلله.

- إذن ماذا حدث أخبرني.

- أولًا وقبل كل شيء، أريدك أن تعدني بأن تستمع لكلامي حتى النهاية دون مقاطعة.

- أعدك.. هيا قل، هل وصلت إلى شيءٍ ما بخصوص العرافة؟

بتوجس قال (إبراهيم):

- ليس تمامًا، اسمعني جيدًا، أنت صديقي منذ ما يقارب العشرين سنة، وأنت تعلم مقدار حبي لك واعتزازي بك كأخٍ لي قبل أن تكون صديقًا، لكني للأسف لا أستحق هذه الأخوة منك!

كان (ياسر) مايزال صامتًا موفيًا بوعده الذي قطعه منذ قليل، لكن القلق ينهش تركيزه، فأكمل (إبراهيم) كلامه قائلًا:

- أنا السبب في كل ما حدث لك منذ أربع سنوات !!، جئتني ذات يوم وكنت تشكو إليَّ حالك أنت و (زهرة)، قلت لي يومها أنه لا فائدة من العلاج والعقاقير الكثيرة التي تتعاطاها (زهرة)، أخبرتني أنك تخشى أن تُجبر على الزواج من أخرى لتنجب لك، لا تريد أن تحيا دون ذرية، أخبرتني أيضًا كم تشتاق لأن تحمل طفلك الأول، ترعاه وتحبه حتى يكبر ويصير مثلك ناجحًا في كل شيء، يومها قررت أنني لابد أن أفعل شيئًا لأجعلك تصبر أكثر، لأجعلك تتمسك بـ (زهرة) ولا تفكر مرة أخرى في الزواج من أخرى لأن زوجتك لا تستحق ذلك منك، ولأنني أرى أنك لن تجد كـ (زهرة) مهما بحثت، أردت أن أعطيك أملًا جديدًا، أن أشغل عقلك بشيءٍ آخر، شيءٍ تترقبه وتنتظره حتى وإن تأخر، يومها هاتفت صديقًا لي وأخبرته أنني أريد امرأة عجوزًا لتنفذ لي مهمةً ما، وأخبرته أيضًا أنني سأدفع لها ما تشاء، وحين جاءني بها في اليوم التالي، تحدثت معها، سألتها إن كانت تجيد التمثيل، فأخبرتني أنها لا تجيد شيئًا أكثر من الكذب! وهذا ما كنت أبحث عنه، طلبت منها أن تؤدي لي دور عرافة، وأن تقرأ لي مستقبلي، وقامت فعلًا بما طلبته، والحقيقة أنها أدهشتني جدًا، وبعد أن انتهت أخبرتني أنها تحب هذا المجال، لأن فيه كذب كثير وأموالٌ أكثر.. بالإضافة إلى أنه لا يحتاج إلى الكثير من الجهد، كل ما يحتاجه هو القدرة على الإقناع، وهذا ما كانت تمتلكه، لم نختلف على المبلغ الذي ستتقاضاه مقابل هذه المهمة، لكنها طلبت مني مكانًا وشابًا يعمل مساعدًا لها، وبضع أشخاص يمثلون دور الزبائن، بالإضافة إلى بعض الأغراض الأخرى، وقد كان.. بحثت لها عن شقة مناسبة لتكون المكان الذي طلبته، فأرشدني بعض الناس إلى الشقة التي دخلناها تلك الليلة، لكن للأسف حين طلبت من المالك تأجيرها بضعة أيام أخبرني أن هناك من أتفق على تأجيرها مسبقًا وأنه سيأتي في اليوم التالي لتوقيع العقد، اعتذر لي.. وكنت سأهم بالمغادرة حين قال: إن أجَّرتها لك ليلةً واحدة أتكفي؟ قلت له وكيف ذلك ألم تقل أن الرجل سيأتي غدًا؟

قال لي ما شجعني على الموافقة: ادفع أكثر تأخذ ما تريد!! وهذا ما حدث، اتفق معي على تأجيرها ليومٍ واحدٍ فقط، وهذا اليوم هو اليوم التالي، والذي سيوقع فيه الرجل العقد معه، أخبرني أنه لن يسكن الشقة في نفس اليوم، بل سيحتاج أسبوعًا تقريبًا حتى يحضر أثاثه، وهكذا حصلت على شقة فارغة لمدة يومٍ واحد، يومها طلبت منك أن تأتي معي إلى العرافة، أقنعتك بشتى الطرق، في النهاية وافقت، وجئت معي في الليلة التالية، والباقي تعرفه أنت، بالطبع لا داعي لأن أخبرك بأن كل المعلومات التي أوهمتك بأنها تعرفها عنك كنت قد أخبرتها بها مسبقًا ، أخبرتها أن تتنبأ لك بأنك ستنجب من (زهرة) لكن لا أعلم ليلتها لما أضافت تنبؤاتٍ أخرى، كيوم الميلاد الذي سيوافق اليوم ذاته، والحظ السيء الذي سيأتي به، في الحقيقة بعد أن انتهت هذه الليلة لم أهتم بأن اسألها عن نبوءاتها تلك، فقط كل ما أهتممت به أنك صدقت كلامها فعلًا وهذا ما أدهشني، لأنك لم تكن يومًا من الأشخاص الذين يؤمنون بهذه الأشياء، والحق يقال أداؤها كان مقنعًا جدًا لدرجة أنني كدت أنسى أنه مجرد تمثيل لا أكثر! المشكلة أنها تقاضت نقودها هي ومن معها واختفوا، لم أعرف عنهم شيئًا بعد تلك الليلة، حتى أنا نسيت الموضوع لفترة، لكن ما أصابني بالجنون هو أن نبوءاتها الكاذبة تحققت بالفعل، بدايةً بمولد (مالك) الذي تزامن مع التاريخ ذاته الذي ذكرته، وقتها لم أعلم ماذا أفعل؟ هل أخبرك بالحقيقة كاملة؟ أم أنتظر لأرى إن كان باقي كلامها سيتحقق، وما كنت أخشاه حدث فعلًا، بدأت المصائب تنهال عليك واحدة تلو الأخرى، وعند أول مصيبة قررت أن أنهك إلى ما يحدث، وليتني لم أفعل ذلك! فقد ازداد الأمر سوءًا، بدأت معاملتك لـ (مالك) تتغير، حتى ساءت جدًا، كما ساءت حالتك النفسية، لكن صدقني حالتي كانت أسوأ منك، صحيح أنني كنت أبدو لك متماسكًا قويًا، لكني حين أختلي بنفسي كنت ألومها أشد اللوم على ما حدث، كيف فكرت للحظة أن أفعل ذلك بك، أحيانًا كنت أقول لنفسي أنني لم أقصد شرًا، وأنني أردت أن أمدك بالأمل لا

أكثر، لكن بدا من الواضح أنني هدمت حياتك بدلًا من أن أساعدك على بناءها، حين حدثت آخر المصائب والتي كانت مرض (مالك) قلتُ لنفسي إن تعافى ولم يصبه مكروه سأخبرك بالحقيقة كاملة، وليكن ما يكن! لا أعلم ماذا يدور في ذهنك الآن، لكن لك الحق في أن تفعل بي ما تشاء، أعلم أنك ربما لن تسامحني أبدًا، لكن لا عليك فهذا حقك، المهم أنني أرحت ضميري وأخبرتك بما كنت أخفيه عنك طوال السنوات الماضية علَّ ذلك يصلح بعضًا مما أفسدته!

حين أنهى (إبراهيم) حديثه، كان (ياسر) قد نهض راكلًا الطاولة بما عليها بعنف فتطاير ما كان يستقر فوقها وتكسر، انتفض (إبراهيم) من مكانه فزعًا، وانتبه الناس من حولهم لما يحدث، أطلق (ياسر) بضع سبات في وجهه (إبراهيم) وقال قبل أن ينصرف:

- لا أريد أن أرى وجهك مرة آخرى أيها الحقير الكاذب، إنسَ أنك كنت تعرفني يومًا.

أما (إبراهيم) فكان مستسلمًا تمامًا فلم يحاول حتى الدفاع عن نفسه أمام ما نعته به صديقه المقرب، فهو لم يتوقع منه غير ذلك، كان (ياسر) يبتعد وهو يفكر كيف يفعل به صديقه ما فعل، ألمه كان أكبر حينما مرَّ في خاطره صوت ابنه وهو يبكي بسببه، يبكي لأنه عنفه دون مبرر، يبكي لأنه يظن أن والده يكرهه.

***

(16)

15 يونيو 2012

لم يعلم (ياسر) تمامًا متى قرر أن يبوح لـ (زهرة) بكل شيء، فخلال الشهرين المنصرمين كان قد توقف عن أشياء كثيرة، منها البحث عن العرافة وعن عمل جديد، وعن الرد على اتصالات (إبراهيم) المتكررة، وأخيرًا عن مغادرة المنزل، بعدما اعترف له (إبراهيم) بالحقيقة التي أوجعته، لكنه قرر أخيرًا أن يبوح.. عَلَّها تسامحه على ما فعله بها وبابنهما، ففي النهاية يعلم أنه مدين لها بتفسير.

أما (زهرة) فلم تعرف ماذا يمكنها أن تفعل لزوجها لتخرجه مما هو فيه، هي لا تعرف أصلًا ما السبب في حالته السيئة هذه، كانت قد ظنت أنه عاد (ياسر) الذي تعرفه، فقد تحسن بعض الشيء في معاملته سواء معها أو مع (مالك)، لكنها صُدِمت حين رأته يعتزل كل شيء فجأة، ويبقى وحيدًا في غرفتهما لا يحادث أحدًا، لا يأكل إلا نادرًا، كما أصبح يدخن بشراهة، وكعادتها التي تكتسبها مؤخرًا حاولت أن تصل إلى السبب أو أن تخرجه مما هو فيه، لكن لا جدوى .

***

كانت (زهرة) قد عادت للتو من عملها وبرفقتها (مالك)، حين دخلت المنزل وجدت (ياسر) واقفًا في الشرفة يدخن كعادته، وما إن وقعت عينا (مالك) عليه حتى ركض مسرعًا ليُفاجأ (ياسر)، بيدان صغيرتان تجذب ملابسه، التفت حيث وقف الصغير، وما إن وجد أنه (مالك) ارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة، ألقى بالسيجارة التي كان يدخنها في الشارع وانحنى يرفع ابنه ليقف كلاهما يراقبان المارين في الشارع، في تلك الأثناء كانت (زهرة) تقف بعيدًا فلم يلحظ (ياسر) وجودها، ابتسمت باطمئنان وتوجهت لغرفتها.

حين جلس الثلاثة حول المائدة يتناولون وجبة الغداء، فوجئت (زهرة) بـ (ياسر) يوجه لها الحديث قائلًا:

- أريد أن أحادثك في موضوعٍ هام.

حركت (زهرة) رأسها بتفهم، وقالت:

- بالطبع.. بعد أن ننتهي نجلس سويًا.

ابتسم لها (ياسر) فابتسمت بارتياح وهي تزفر بهدوء، أخيرًا سيتكلم وستفهم كل شيء.

***

حينما جلست (زهرة) على الأريكة بجوار (ياسر)، كان الأخير متوترًا جدًا وظهر ذلك بوضوح في هَزَّاتِهِ المتتابعة لساقه اليمنى، مدت (زهرة) يدها لتضعها على فخذه قائلة:

- اهدأ.. ليس هنالك ما يستحق كل هذا التوتر.

ابتسم (ياسر) ومد كفه لتلامس كفها التي كانت ما تزال في مكانها، ربت عليها ثم قال:

- أعلم أنكِ منذ فترة طويلة تسألين نفسك ماذا أصابني؟ وخاصة الشهرين الماضيين، أعلم ذلك جيدًا، لذلك أردت أن أعتذر منكِ على كل ما بدر مني تجاهكِ أنتِ و (مالك) أريدكِ أن تسامحيني وأن تغفري لي قسوتي تلك.

ابتسمت (زهرة) في حين كانت تخشى مقاطعته فيتغير رأيه ويقرر ألا يبوح، لذلك بقيت صامتة تستمع بانتباه وتركيز شديدين.

أكمل (ياسر) حديثه الذي بدأه، فأخذ يقص عليها ما حدث منذ تلك الليلة التي أخذه فيها (إبراهيم) إلى تلك العرافة، مرورًا بالمصائب التي توالت مفسرًا لها حالته النفسية وقت كل مصيبة، كان يحكي بصدق، عيناه تدمعان حينًا وترتجف يداه حينًا آخر، وكانت (زهرة) تلحظ ذلك كله، لكنها آثرت الصمت فلم تقاطعه، كان (ياسر) يلفظ مشاعره التي شعر بها في كل موقف.. في كل يوم وكل ساعة وكل دقيقة، كيف أنه بحث كثيرًا عن هذه العرافة هو و (إبراهيم) وكيف اعترف له الأخير بأنها كانت مجرد خدعة

مارسها عليه، وكيف أنه لا يعلم شيئًا عن نبوءات تلك العجوز التي تحققت بعدما اختفت تمامًا فلم يعرف لها طريقًا، وكيف أنه قرر أن يحكي له بعدما تعافى (مالك) بحجة أن ضميره كان يؤنبه على ما فعل، حكى لها كل شيء خطر بباله يخص الفترة الماضية، وحين انتهى سألها قائلًا:

- هل ستظلين صامتة؟

لكنها حركت رأسها نافية، ثم بادرت بالحديث فقالت:

- أولًا أنا سعيدة جدًا لأن ثقتك بي عادت من جديد، وسعيدة أكثر لأنك أخيرًا أخرجت ما كان يختلج في صدرك من أسرار وأظنك تشعر ببعض الراحة الآن أليس كذلك؟

- نعم، أشعر أنني أفضلُ حالًا.

- جيد، أما بالنسبة لما قلته ففي الحقيقة لم أتخيل أبدًا أن (ياسر) الذي أعجبتُ به وتزوجته صاحب المباديء التي لا تُجَزَّأ، يذهب إلى عرافة وفوق هذا يصدق كلامها والأسوأ أن يسمح لهذا الكلام أن يؤثر على مجرى حياته ومعاملته لزوجته وابنه، أتعلم أن الذين يؤمنون بهذه الخرافات لا يثقون بقضاء الله وقدره؟ هؤلاء الناس ضعفاء سمحوا لآخرين أن يرسموا لهم حياتهم، لذلك فهم يصدقونهم في كل شيء ويومهم لا يمكن أن يبدأ إلا بالاستماع إلى هذه التفاهات، وأنا لم أعهدك ضعيفًا أبدًا يا (ياسر).

كانت الدموع قد تسللت من عينيه فانسابت ببطء على خديه وذقنه الغير حليقة، كان يبكي لأنه يعلم أن كلامها صحيح، وأنها على حق، منذ متى

كان ضعيفًا إلى هذا الحد؟ ومنذ متى يؤمن بهذه الخرافات، خطأه أنه استسلم سريعًا لإلحاح (إبراهيم)، ولم يتمسك بمبادئه وقناعاته، وخطأه الأكبر أنه صدقها وسمح لها أن تسيطر على تفكيره وحياته فهدمتها!

كان الهدوء قد ساد بينهما، كلاهما يفكر في نفس الموضوع ولكن كُلٌّ بطريقته، فجأة امتدت يدي (زهرة) لتحتضن وجه (ياسر) وبدأت بمسح الآثار الباقية من دموعه، وقالت:

- أمازلت تحبني؟

- لم يسكن قلبي سواكِ يا (زهرة).

- إذن فلتساعدني لنجتاز هذه المحنة، أتعدني؟

- بالطبع أعدك.

قالها مبتسمًا مُقَبِّلًا كفها، فقالت:

- سيكون كُلُّ شيءٍ على ما يرام، فقط ثق بالله.

***

obeikandl.com

(17)

20 يونيو 2012

الساعة تشير إلى الثامنة صباحًا، ارتدت (زهرة) ملابسها وبدأت بإيقاظ (ياسر) الذي كان غارقًا في النوم، فهو لم يستيقظ في مثل هذا الوقت منذ تركه للعمل، فتح عينيه بصعوبة فوجد وجه زوجته يحدق فيه بابتسامة جميلة، فقال:

- صباح الخير.

- صباح النور يا عزيزي، هيا قُم سنتأخر!

- حسنًا.

تركته (زهرة) مغادرةً الغرفة، متجهةً إلى غرفة (مالك) لإيقاظه هو الآخر، نصف ساعة مرت كان (ياسر) قد انتهى من ارتداء ملابسه، أما (مالك) فقد ارتمى على الأريكة محتضنًا حقيبته الصغيرة منتظرًا والداه.

****

توقفت سيارة الأجرة أمام البوابة، ترجل كُلٌّ من (ياسر) و (زهرة) بعد أن نقد (ياسر) السائق أجرته، توجها نحو البوابة، لكن (زهرة) فوجئت بتوقف (ياسر) على المدخل فسألته قائلة:

- ما بك؟ ألن تدخل!

- أتذكرين آخر مرة جئت فيها إلى هنا؟

ضحكت (زهرة) بعفوية وقد فهمت ما يرمي إليه، فابتسم (ياسر) قائلًا:

- أمازالت صديقتك الثرثارة موجودة؟

- من.. (عبير)؟

- لم أحفظ اسمها!

- نعم نعم إنها عبير، بالطبع مازالت تعمل هنا، ستجدها بالداخل هيا.

تقدم (ياسر) متخطيًا البوابة تابعًا (زهرة) إلى الداخل، توجها أولًا إلى قاعة الاستقبال، وما إن وصلا حتى دَوَّت ضحكات متتابعة من امرأة كانت تجلس على كرسي مولية ظهرها للباب فلم تلحظ دخولهما، تقدمت (زهرة) في حين وقف (ياسر) مكانه، طرقت بإصبعها بضع طرقات على الطاولة فانتبهت (عبير) وسرعان ما أنهت المكالمة التي كانت تجريها، وضعت السماعة ثم هتفت بتلقائية:

- السيدة (زهرة)، لِمَ تأخرتِ؟

ردت (زهرة) ممازحةً صديقتها:

- ما شأنك! آتي كل يومٍ في موعدي، من حقي أن أتأخر ليومٍ واحدٍ على الأقل.

obeikandl.com

- حسنًا لا ترفعي صوتك.

التفتت (عبير) نحو الباب حيث وقف (ياسر)، وما إن تعرفت عليه حتى صاحت:

- أهلًا أهلًا بك أستاذ (ياسر).. (ياسر عبدالعزيز الهلالي)!

اقترب (ياسر) إلى حيث وقفت زوجته مبتسمًا محييًا (عبير) فقال:

- أهلًا بكِ، جيد مازلتِ تذكرين اسمي!

- بالطبع كيف لي أن أنسى.

قالتها بعدما تبادلت نظراتٍ ذات معنى مع (زهرة)، صمت الجميع لثوانٍ إلى أن قالت (عبير):

- تريدان مقابلة دكتور (خالد إدريس) إليس كذلك؟

أجابت (زهرة):

- نعم، هل وصل أم ليس بعد؟

- وصل قبلكما بخمس دقائق.

- جيد، سنذهب لمقابلته وسأمرُ عليكِ بعد أن ننتهي.

- حسنًا.

***

obeikandl.com

توالت الطرقات على باب مكتبه، فصاح:

- تفضل!

فتحت (زهرة) الباب وولجت يتبعها (ياسر)، رفع الطبيب رأسه وحين وجد أنها زميلته في العمل هتف:

- أهلًا أهلًا سيدة (زهرة)، أهلًا بك أستاذ (ياسر)، تفضلا بالجلوس.

اتخذ كُلٌّ منهما مقعدًا أمام مكتبه، في حين سأل الطبيب (ياسر) قائلًا:

- كيف الحال؟

- بخير الحمد لله.

- أخبرتني السيدة (زهرة) بالموضوع الذي جئتما لأجله، وأنا سعيدٌ بلقاءك حتى وإن كان لاستشارةٍ طبية!

قالها ضاحكًا، في حين ضحك (ياسر) و (زهرة)، لكنه أكمل:

- حسنًا لنبدأ إذن، بدايةً يجب أن تعلم أنني لن أتحدث عن رأي الدين في هذا الموضوع فهو معروف للجميع، ولكني سأتحدث عن رأي علم النفس بصفتي طبيبًا نفسيًا، أولًا التنجيم هو عبارة عن محاولة لفهم الذات وتحليل الشخصية، يقوم بها فئة من الناس تدعي قدرتها على قراءة المستقبل، ولكل عراف طريقته في ذلك، فمنهم من يستخدم علم الفلك ومنهم من يستخدم علم الأرقام أو الكرة البلورية، ومنهم من يعتمد على

قراءة الفنجان، أو أوراق التاروت أو خط الكف، وهناك فئة أخرى يكتفون بالقول بأن لديهم موهبة خاصة خارقة للعادة، فهم يدعون بأنهم يخبرون الناس بما يظهر لهم من رؤى ذهنية أو ما يشعرون به، نافين صلتهم بالجن والأرواح الأخرى.

تكلم (ياسر) مقاطعًا الطبيب، فقال:

- تلك العجوز استخدمت معي أوراق التاروت.

هز الطبيب رأسه ثم أكمل قائلًا:

هناك وسائل للإقناع يستخدمها العراف بذكاء ليؤثر في أذهان الناس ويكسب ثقتهم، تلك الوسائل تسمى تقنيات القراءة الباردة.

هنا سألت (زهرة) الطبيب قائلة:

- وماذا تعني؟

- هي تقنيات غالبًا يلجأ إليها العراف للإتيان بمعلومات عن الأشخاص ليقنعهم بأنه يعرف عن موضوعٍ ما أكثر مما يعرفونه هم حول أنفسهم، ولكن في حالة (ياسر) فصحيح أنها احتاجت لمجهودٍ كبير لتجعلك تثق بها وبكلامها لكن هذا لم يكن ليحدث دون المعلومات التي وصلتها من صديقك، ثم لا تنسى أنها ليست عرافة في الأصل، لكن من الواضح أنها تمتلك معرفة مسبقة بهذا المجال بدليل استخدامها لأوراق التاورت لتوهمك بقراءة مستقبلك، صديقك لم يختَر أي شخص على ما يبدو.

ابتسم (ياسر) بألم، في حين تابع الطبيب قائلًا:

- هناك الكثير من الناس تجدهم على استعداد لتقبل الأبراج تحت تأثير فورير أو ما يعرف أيضًا بتأثير بارنوم، وهو تأثير يجعل الناس ينظرون إلى الصيغ العامة والغامضة والتي يكون اتجاهها العام إيجابيًا، مثل: في بعض الأحيان أنت منفتح واجتماعي ولكنك انطوائي في حالات أخرى، يجعلهم ينظرون إلى هذه الصيغ على أنها توصيفات في محلها بالنسبة لشخصيتهم،وفي الحقيقة المنجمون ليسوا خارقين أو قادرين فعلًا على معرفة أسرارك لكنهم مجرد أشخاص يتمتعون بالكثير من الدهاء لا أكثر، أما ما حدث معك فهو لا يتعدى الصدفة البحتة، هي قالت كلامًا مرسلًا غير مقصود بناءًا على المعلومات التي مَدَّها بها صديقك، لكنها أرادت أن تضيف بعض التوقعات لتصدقها أكثر فقالت أنك سترزق بطفل، وأنه سيولد في نفس اليوم الذي جئتها فيه، وأن حظه سيكون سيئًا، كل هذه كانت محاولات فاشلة منها للتكهن، أما ما قالته لي السيدة (زهرة) بخصوص تحقق تكهناتها تلك، فهي محض صدفٍ لا أكثر، أولًا يوم ولادة ابنكما كان مقدرًا في ذلك اليوم لذلك ولد وقتها، وليس بسبب تكهناتها، ثانيًا المصائب التي تحدث في حياتنا كلها أقدار مقدرة من عند الله، فمثلًا وفاة والدة السيدة (زهرة) والتي كانت تعاني من أعراض جلطة قلبية قبل أن تتوفى كما حكت لي زوجتك، وأنها لم تتلقى العلاج اللازم بسبب إهمالها، فكانت النتيجة الطبيعية هي الوفاة، وأيضًا الحادث الذي تعرضتَ له ، لابد أن تعلم وتؤمن بأنه قدرٌ من الله وربما كان اختبارًا منه لدرجة إيمانك بقدره، وأخيرًا مرض ابنكما والذي هو عبارة عن عدوى بكتيرية، أي أنه لابد أن أحدًا

من زملاءه بالحضانة كان حاملًا للعدوى مما أصابه بها، ولابد أن الطبيب المعالج أخبركم بذلك.

قال (ياسر) ردًا على كلام الطبيب:

- أعتقد أنه أخبرنا وقتها لكنني لم ألحظ ذلك.

ابتسم الطبيب ثم قال:

- لا مشكلة، المهم أنني استطعت إيصالكم إلى تفسيراتٍ مقنعة لكل ما حدث، ولكن يجب أن أخبرك شيئًا أستاذ (ياسر)، إنْ خلقنا الله وأمدنا بالقدرة على معرفة الغيب لأُصِبنا بالكثير من الأمراض النفسية ولاستحال علاجنا، ولتوقفت الحياة لأنه لن يكون هناك معنٍ لها، وقتها سيتوقف الجميع عن العمل وإعمار الأرض، وسيفقدون حتمًا شغفهم بالحياة، سيتوقفون عن التفاؤل وتوقع الخير، ببساطة لأن كل شيءٍ سيصبح مكشوفًا لديهم، حياتهم القادمة كلها، أنفاسهم.. دقات قلوبهم، ألا ترى معي أنه من المزعج جدًا أن تعرف ماذا سيحدث مثلًا في الدقيقة القادمة؟ تخيل معي كيف ستكون حياتك وقتها!

***

(18)

30 ديسمبر 2012

خلال الستة أشهر الماضية تغيرت أشياء كثيرة، عاد (ياسر) لحياته الطبيعية، وعاد إليه اتزانه النفسي، اتفق مع (زهرة) أنهما سيمحوان تلك الفترة الصعبة من حياتهما، وكأنها لم تكن، وسيبدءآ من جديد، بدأت (زهرة) حملة تغيير شاملة، بدلت أثاث المنزل، ألوان الجدران، وأكثر ما اهتموا به هو غرفة (مالك)، قاموا بطلاء جدرانها بألوان طفولية جميلة وعلقوا على إحداها صورته التي رسمتها (زهرة) حينما كان في المستشفى، ملأتها بالألعاب المسلية والتي يحبها الصغير، كما خصص (ياسر) غرفة لـ (زهرة) حَوَّلَها إلى مرسمٍ جميل، وملأها بلوحاتها التي رسمتها قبل زواجها منه وبعده، اشتروا ملابس جديدة لثلاثتهما، وزاد اهتمام (زهرة) بنفسها وبأناقتها، أما (ياسر) فقد تحسنت معاملته لهما جدًا، بل تغيرت للنقيض تمامًا، فأصبح لا يقضي وقته إلا معهما، يتنزهان.. ويلعبان مع ابنهما، يزوران أماكن جديدة، باختصار بدأوا باكتشاف وجه آخر للحياة، وجه أجمل بكثير مما عاشوه قبلًا، عثر (ياسر) على عملٍ جديد، والمفاجأة أن راتبه في هذا العمل الجديد كان أكبر بكثير من راتبه الذي كان يتقاضاه في عمله القديم، أما (إبراهيم) فقد حاول كثيرًا أن يتحدث إلى (ياسر) لكنَّ الأخير كان يستقبل تلك المحاولات بالرفض، فما فعله به لم يكن هينًا، حتى قرر يومًا أن يسامح، بعد إلحاح كبير من (زهرة) فقد كانت تذكره

دائمًا بكل ما كان جميلًا بينهما، حتى نجحت أخيرًا في الإصلاح بينهما، وعادت علاقتهما كمان كانت وأفضل من قبل.

***

2 مارس 2013

رفع (مالك) ذراعيه وهما تحتضنان بالونة حمراء، في حين انحنت (زهرة) لتأخذها منه وتثبتها بجوار الأخريات على إحدى جدران المنزل، كان (مالك) سعيدًا جدًا، فمنذ وُلِدَ ووالِداه لم يحتفلا به أبدًا، فكلما كان يقترب يوم ميلاده كانت تحدث كارثة تنسيهم الاحتفال به، لكن هذه المرة تختلف، الفرحة في كل مكان، تُقَبِّل خديه كل ثانية، لم يشعر بمثل هذه السعادة قبلًا، حتى والداه كانت معنوياتهما مرتفعة جدًا، متفائلان.. يضحكان ويستمتعان بتجهيز المنزل وتزيينه.

***

حين دقت الساعة إثنتا عشرة دقة، معلنةً عن بداية يومٍ جديد هو الثالث من مارس، كانت الأضواء قد انطفئت، وأضاء مكانها أربع شمعاتٍ جميلة فوق كعكعة كبيرة كتب عليها (عيد سعيد يا مالك)، وقفت (زهرة) وبجوارها وقف (ياسر) وأمامهما كان (مالك) منبهرًا بالأضواء الجميلة التي انبعثت على الجدران من تأثير الشموع، هتف (ياسر) مغنيًا حاثًّا إياهما على الغناء، فتحمست (زهرة) وبدأت بالغناء معه، وقف (مالك) وقد ارتسمت

الحيرة على وجهه، فلم يعرف كيف يشاركهما الغناء، لكنه سرعان ما التقط بضع كلمات فأخذ يرددها معهما.

حين فرغا من الغناء، قالت (زهرة) لـ (مالك) وهي تعبث في خصلات شعره:

- هيا ياحبيبي تمنى أمنية ثم أطفئ الشموع.

- حاضر.

صمت الجميع لثوانٍ، قبل أن يهتف (مالك):

- تمنيت!

- إذن هيا.. واحد، إثنان، ثلاثة

نفث الجميع معًا فانطفئت الشموع وساد الظلام لثوان قبل أن يضيء (ياسر) الأضواء، صفقت (زهرة) و (ياسر)، تبعهما (مالك) بتصفيقات صغيرة بكفيه الأصغر وهو يضحك سعيدًا.

توقفت (زهرة) عن التصفيق فجأة وقالت:

- حان وقت الهدايا.

هتف (مالك) وهو يتقافز:

- أجل أجل.

obeikandl.com

قالت (زهرة) موجهة حديثها لـ (مالك):

- على هذه الطاولة هناك هديتان، واحدةٌ مني، وواحدة من بابا.

ركض (مالك) نحو الطاولة التي وضعت عليها الهديتين وانشغل بفك التغليف عنهما، في حين كان (ياسر) و (زهرة) يراقبانه بفرح.

***

10 إبريل 2013

انتبه (إبراهيم) لرنين هاتفه الملقى على سطح مكتبه، تحرك نحوه ببطء، تناوله من مكانه فإذا برقم غريب يضيء شاشته، ضغط زر الرد فجاءه صوتها منبعثًا عبر السماعة قائلًا:

- مرحبا أستاذ (إبراهيم)

- أهلا... من معي؟

- ألا تذكرني؟

قطب (إبراهيم) جبينه في استغراب ثم قال:

- عذرًا لا أتذكر!

انبعثت الضحكات من حنجرتها عبر الهاتف حتى وصلت إلى إذن (إبراهيم) فزاد استغرابه، لكنها تابعت:

obeikandi.com

- أنا من احتجتني يومًا لتكذب على صديقك!

هنا عادت صورتها في الظهور في ذهن (إبراهيم) بشعرها الأبيض الخفيف، وبشرتها السمراء المجعدة، لكنه سرعان ما نفضها عن ذهنه وقال:

- ماذا تريدين؟

- لا أريد منك شيئًا، فقط لدي رسالة ويجب أن تصل إلى صاحبها!

- أيَّ رسالة؟

- ستعرف حينما نتلقي غدًا في نفس المكان الذي التقينا فيه أول مرة، ولكن لا تنسَ أن تحضر صديقك معك، فالرسالة له.

ثم أُغلِق الخط، بقي (إبراهيم) مشدوهًا لا يعرف ماذا يقول أو بِمَ يرد، فهي لم تعطه فرصة للقبول أو الرفض حتى، لكنه سرعان ما اتخذ قراره، واتصل بـ (ياسر):

- مرحبًا (ياسر)

- أهلًا يا رجل كيف حالك؟

- بخير بخير.. اسمعني جيدًا

بدت على (ياسر) علامات القلق فقال:

- تفضل ما بك؟

- لقد ظهرت!

باستغراب قال (ياسر):

- مَن؟

- العَرَّافَة

- عدنا من جديد! ألم ننهي هذا الموضوع قبلًا؟ لِمَ تعيد فتحه الآن؟

قال (إبراهيم) مدافعًا عن نفسه:

- لم أُعِد فتحه، هي من حادثتني وطلبت مقابلتنا أيضًا، تقول أن هناك رسالة مهمة يجب أن تصل إليك!

- ماهذا الهراء الذي تهذي به يا (إبراهيم) هل عادت تلك العجوز لتعبث بعقلك من جديد!!

- ليس هُرَاءًا لقد كانت جادة، أخشى أنه يجب أن نلتقيها يا (ياسر).

- نلتقيها! كلا التقيها بمفردك فلن آتي معك هذه المرة ومن ثم أخبرني بمَ ستقول وسأذكرك وقتها بأنه مجرد هُرَاء لا أكثر!

- حسنًا.

***

obeikandl.com

(19)

11 إبريل 2013

حين وصل (إبراهيم) دار ببصره في أرجاء المكان حتى وجدها جالسة على إحدى الطاولات في ركن من أركان القاعة، تحرك نحوها حتى وصل إلى حيث جلست، انتبهت لوصوله فرفعت بصرها لتجده، ابتسمت وقالت:

- أين صديقك؟

أجاب (إبراهيم) وهو يسحب كرسيًا ليجلس عليه:

- لم يأت

- ولِمَ؟

قال (إبراهيم) محاولًا إنهاء الموضوع:

- لديه مشاغل، هلا أخبرتني ماذا تريدين بالضبط؟

ابتسمت بهدوء وقالت:

- أخبرتك أنها رسالة، أو بالأحرى تحذير يجب أن يصل إلى صديقك!

- أيُّ تحذير؟

obeikandi.com

- أخبره فقط بأن بذرته تنمو في بطن زوجته هذه الأيام ولكن لينتبه فستأتي عليه لحظة سيعود فيها كما وُلد

بدا القلق على ملامح (إبراهيم) فقال:

- ماذا تقصدين؟

لم تمنحه جوابًا لسؤاله وإنما نهضت فجأة من مكانها وهي تردد مغادرة:

- الأيام ستثبت كل شيء.. الأيام ستثبت كل شيء!

***

حين حكى (إبراهيم) ما قالته العجوز له، انفعل (ياسر) وقال:

- أمازلت تصدقها يا (إبراهيم)؟؟ لقد أوشكت هذه المرأة على تدمير حياتي في يوم من الأيام، وأنت ما زلت تصدقها بعد كل ما حدث، بربك ما الذي تهذي به!

- اهدأ يا (ياسر) أرجوك، أنا فقط أوصل لك رسالتها لا أكثر، لكن لم أقصد إدخالك في نفس الموضوع من جديد.

زفر (ياسر) بقوة وقال بعد أن هدأ قليلًا:

- حسنًا.. وقد وصلت الرسالة شكرًا لك

***

obeikandl.com

20 مايو 2013

وقف الطبيب يدون بعض الملاحظات في الملف الخاص بالمريض، ثم ما أن انتهى حتى انصرف مغادرًا الغرفة، وما إن خرج حتى هرعت (زهرة) إليه قائلة:

- طمئني أرجوك.

- للأسف الحادث تسبب بأضرار حادة في الجزء الخاص بالذاكرة مما نتج عنه فقدان مؤقت لها!

صُدمت (زهرة) مما قاله الطبيب، لكنه حاول طمأنتها قائلًا:

- إنها حالة مؤقتة وستعود إليه ذاكرته بعد فترة من الزمن فقط يلزمه الراحة والتغذية الجيدة، وبعض المساعدة منكِ حتى يستعيد المخ توازنه، ففي أغلب الحالات عندما يتوقف ارتجاج الخلايا يستعيد المصاب ذاكرته مرة أخرى كما كانت.

كانت (زهرة) صامتة لا تدري ما تقول، فقط ضَمَّت (مالك) إلى حضنها وسمحت لدموعها بالانهيار.

***

حين أفاق (ياسر) من غيبوبته، هرعت (زهرة) لتنادي الطبيب المسؤول عن حالته، وحين جاء واطمئن على علاماته الحيوية، قال لها:

- إنه بخير الآن يمكنك أن تحادثيه لكن بهدوء ودون صدمات لو سمحتِ

حركت (زهرة) رأسها موافقة، فانصرف الطبيب تاركًا إياهما معًا، حرك (ياسر) بصره في الغرفة حتى التقت عيناه بوجه (زهرة)، اقتربت الأخيرة منه، مدت يدها فلامست كفه الموضوعة بجواره وقالت:

- عزيزي أتعرف من أنا؟

بدت علامات البلاهة على وجه (ياسر)، لكنه سرعان ما أجاب بسؤال قائلًا:

- أين أنا؟

- أنت في المستشفى

- لماذا؟

تنهدت (زهرة) قائلة:

- حادث سير، صُدمت سيارتك وأنت بداخلها فارتطم رأسك وأصيب بارتجاج و... وفقدان في الذاكرة!

- ومن أنتِ؟

دمعت عيناها وقالت:

- أنا زوجتك (زهرة).

ثم رفعت (مالك) عن الأرض قائلة:

- وهذا ابننا (مالك)، ولدينا ابنٌ آخر، لكن ليس هنا بل...

ورفعت كفه فوضعتها على بطنها قائلة:

- بل هنا!

***

21 مايو 2013

دخل (إبراهيم) غرفة (ياسر)، اقترب منه، مد يده مصافحًا لكنَّ الأخير لم يمد يده بالمصافحة، بل سأله:

- من أنت؟

- (إبراهيم) صديقك يا (ياسر)

صمت الجميع فجأة، إذ لم يبد على (ياسر) أنه تذكر صديقه، لكن (إبراهيم) تابع قائلًا:

- لقد حذرتك ولم تُنصِت إلى كلامي.

- لا أفهم!

obeikandl.com

قالت (زهرة) موجهة كلامها لـ (إبراهيم):

- ماذا تقصد؟

- عندما تعود إليك ذاكرتك ستفهم كل شيء، ولكن قبل أن أنسى، هناك من يريد الاطمئنان عليك.. تفضلي

فُتح باب الغرفة، ودخلت بخطواتٍ بطيئة حتى اقتربت من سرير (ياسر)، ما إن رأته في تيهه حتى قالت مبتسمة:

- حمدًا لله على سلامتك.

قالتها ثم التفتت إلى (زهرة) قائلة:

- لقد حذرته أكثر من مرة وحَذَّرَهُ صديقه، لكنه لم يهتم بل استمر بالعناد.

ثم قالت مخاطبةً (ياسر):

أمازلتَ لا تصدق؟

****

تمت بحمدالله

obeikandl.com

obeikandl.com

أعِدِّي ليَ اليومَ مُتَّكَأً

فسوفَ أزورِكِ عند المساء

نعيد حساباتنا من جديد

ونجمع صفحات قصتنا من جديد

ونقرؤها من جديد

وننثرها

في عنان السماء.

محمود عبدالرازق

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

noon_publishing@yahoo.com
0235860372 - 01127772007

obeikandl.com